مجالات إنتشار العلمانية وأثرها في المجتمع الإسلامي

تأليف
الدكتور محمد زين الهادي
الأستاذ المساعد بجامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار العاصمة
الرياض

بسم الله الرحمن الرحیم

مجالات إنتشار

العلمانية

وأثرها في المجتمع الإسلامي

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

دار العاصمة
الرياض - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١ - هاتف ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

إن الحمد لله، نحمده نستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

أما بعد،

فلقد شاء الله جل وعلا، أن يختار رسوله ونبيه محمداً ﷺ خاتماً لرسله وأنبيائه، وأن يختار أمته، أمة وسطاً. وشاهدة على الأمم. ولقد بلغ رسول الله ﷺ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة.

ثم إنه حمّل هذه الأمانة لأمته لتواصل المسيرة من بعده في هداية البشرية حيث لا نبي بعده يهدي الخلق، كما قال الإمام أحمد بن حنبل:

يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين...[1].

---

(١) ورد جزء من هذا الحديث في كتابه: الرد على الزنادقة والجهمية ص ٩.

وكما وصف استمرار هديه بقوله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ، يقود هذه الأمة ويسوسها بحكم الله، كما أمره بذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾[2].

ثم استمر خلفاؤه من بعده على هذا المنهاج لا يزيغون عنه. . . .

ثم جاء مَنْ بعدهم حتى قبيل إنهاء الخلافة الإسلامية على يدي ربيب أعداء الله الغربيين كمال أتاتورك، استمر الحكم بالإسلام، ولم يعرف المسلمون إلى ذلك الوقت حكماً غير كتاب الله وسنة نبيهم، وان اختلفت طرق الأخذ والبعد والقرب من المنهج السوي. . . ولكن لم يعرف المسلمون ولا حكامهم قانوناً يتحاكمون إليه غير ما كان أساسه الشريعة الإسلامية.

كما أنهم لم يعرفوا ذلك التعليم المشطور شطرين، شطر ديني وشطر غير ديني، بل كان التلميذ يدرس في حلقة شيخه، الفقه والتفسير والكيمياء والطب. . . . على حد سواء وحسب مقدرته وطاقته. . . وبسبب هذا فقد عرف المسلمون علماء موسوعيين ومشاركين في شتى مجالات العلوم وفروع المعرفة[3]، ولكن بعد زوال دولة الإسلام أو على الأصح بعد أن انحل الرباط الذي كان يجمع المسلمين. . . بعد ذلك تبعثرت كلمة

---

(١) رواه البخاري ومسلم. انظر البخاري بشرحه فتح الباري كتاب الاعتصام، باب ١٠، لا تزال طائفة من أمتي. . . ١٣/٢٩٣، ومسلم كتاب الإيمان، حديث ٣٤٧.

(٢) سورة المائدة: : آية ٤٩.

(٣) لمعرفة ذلك بالتفصيل انظر كتابنا: منهاج الحياة.

المسلمين وتشتت جمعهم... ومن حينها شعروا بضآلتهم أمام العالم المتربص بهم مثل هذه الفرصة.

فنزل بهم الاستعمار وجزأ ديارهم وغيّر قوانين حكمهم، بل وأتاهم يجر قصبه وفيها كل حثالاتهم وأعرافهم، وحرص على محو الهوية الإسلامية كلية بما أدخل معه من مذاهب وأفكار هدامة مَهَّدَ لها بحكم القانون، وعمل على ترسيخ دعائمها بتربية أبناء المسلمين، بعد أن زين لهم الذهاب إلى دياره بحجة أن العلم عنده... فكان الابتعاث الذي ما زال حبله لم ينقطع يجر إليه أبناء المسلمين وحداناً وزرافات.

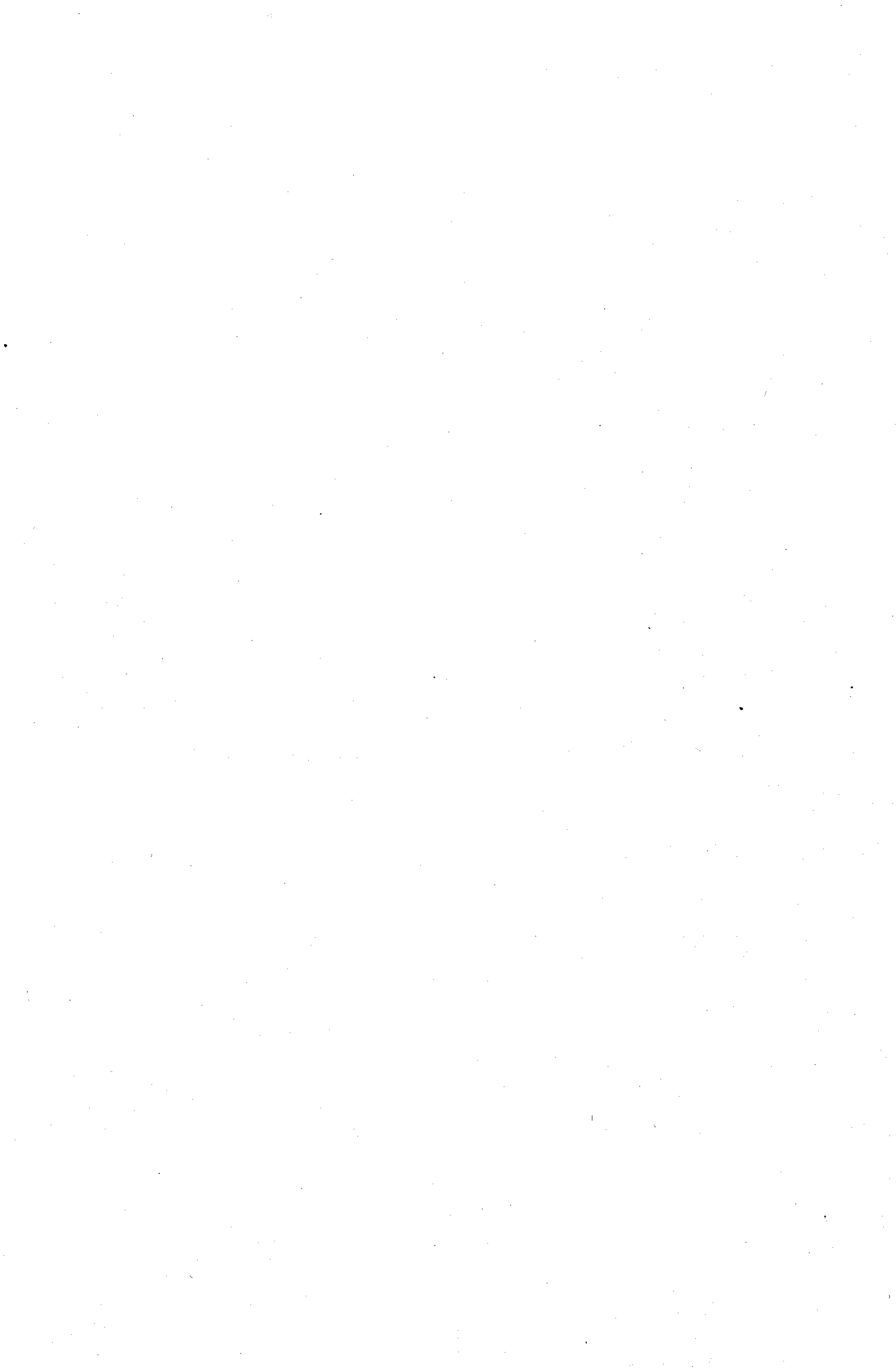
لقد عمل الاستعمار على بث الفرقة وأسباب الخلاف بين المسلمين عن طريق إذكاء وإحياء النعرات العنصرية الجاهلية المتمثلة في التفاخر بالقوميات الإقليمية الضيقة التي وصفها الرسول ﷺ بالنتن، وحذر منها.

كما دفع المسلمين عن طريق التعليم والحكم والإعلام، فعمهم بالمذاهب الفاسدة مثل العلمانية وغيرها، بعد أن عمل على دسها في تلك الثلاث المذكورات، وهي بدورها عملت على ترسيخها في أذهان المسلمين جيلاً بعد جيل:

وهذا الكتاب، على صغر حجمه، يعالج تلك الثلاث التعليم والإعلام والحكم، من حيث أثر المذهب والفكر العلماني فيها، ومن حيث أثرها هي بعد علمنتها في المجتمع الإسلامي، ومظاهر ذلك وانعكاساته على الأجيال المسلمة، كما تعرض الكتاب لبعض الشخصيات التي كان لها أثر بارز في تعميق الفكر العلماني في الثلاث المذكورات.

وأسأل الله أن ينفع به قارئه ويثيب كاتبه وناشره إنه نعم المولى ونعم المعين، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف



الفصـل الأول

تسرب العلمانية إلى المناهج التعليمية

سوف أعالج هذا الفصل على ضوء النقاط التالية:

١ ـ ما هي الطرق أو الكيفية التي دخلت بها العلمانية إلى التعليم.

٢ ـ إلى أي مدى كان أثر العلمانية في التعليم؟

٣ ـ ما أثر علمنة التعليم على الأجيال ثم المجتمع؟.

٤ ـ لمحة موجزة عن التعليم الإسلامي قبل الاستعمار.

٥ ـ الخطوات التي اتخذها الاستعمار لعلمنة التعليم.

٦ ـ في أي مراحل التعليم بدأت العلمنة وكيف؟.

٧ ـ انتشار المدارس الأجنبية وأثرها في العلمنة.

٨ ـ الحالة التي صار عليها التعليم بعد خروج الاستعمار.

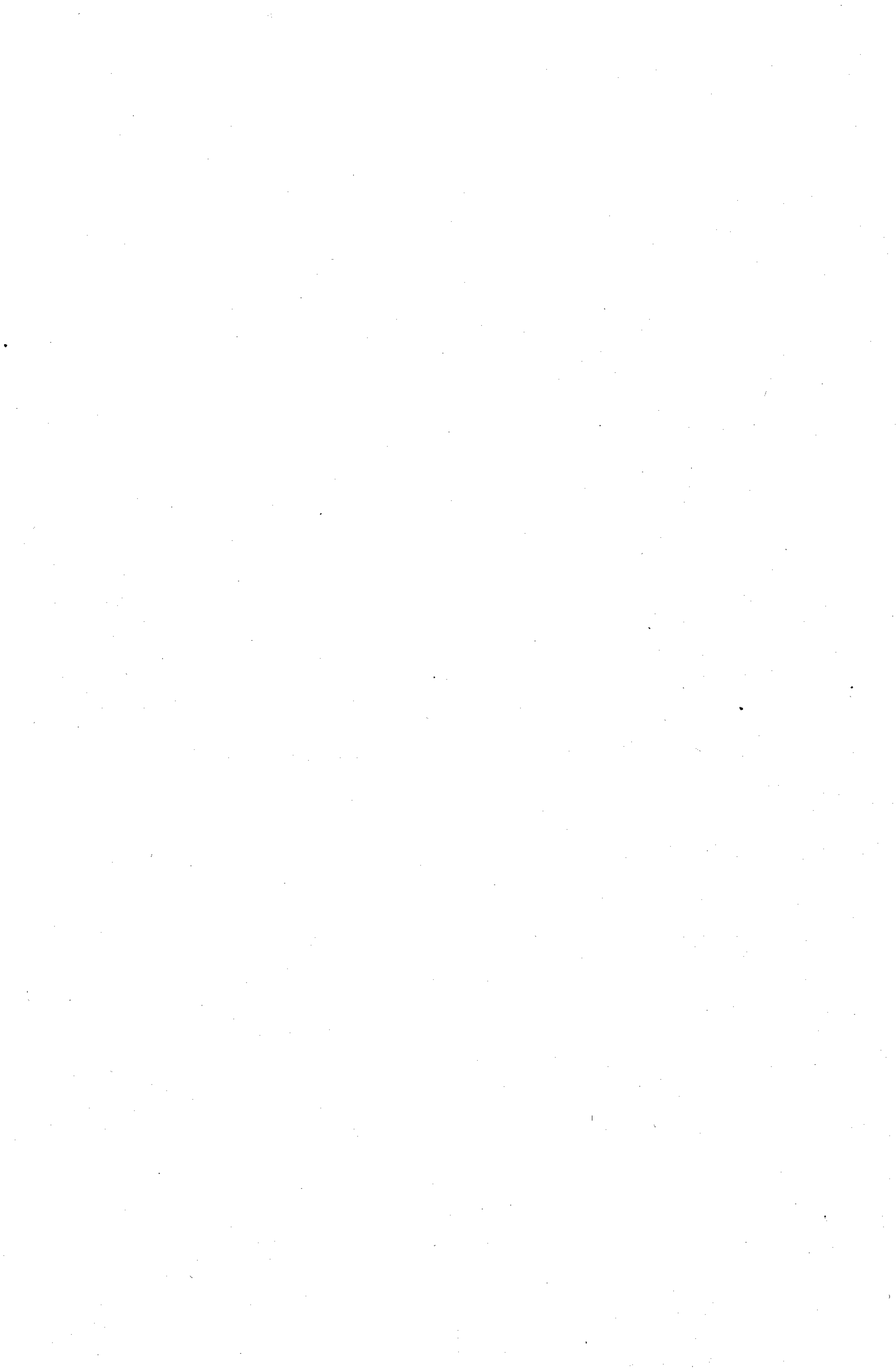
٩ ـ تقسيم التعليم إلى «ديني» وعلماني.

١٠ ـ العمل على إلحاق التعليم المسمى بالديني بالتعليم العلماني تحت شعار «التطوير».

١١ ـ واقع التعليم اليوم.

هذا مع ملاحظة أني لا أتناول تلك النقاط بذاك الترتيب، بل أتناولها بلف ونشر غير مرتب حسب الحاجة.

* * *



عُني الإسلام منذ انبلاج فجره الأول بالتعليم عناية لم يسبق إليها، فكان مما نزل في ذلك الحث على القراءة والتعلم. والقراءة والتعلم كل منهما يعني نفي الجهالة بكل أشكالها وألوانها وأنواعها، سواء كانت جهالة العلم أو جهالة الأمية أو جهالة الجاهلية... إلخ، يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ...﴾[1].

والناظر بعين فاحصة وفكر ثاقب إلى هذا النص القرآني، يجد الربط الوثيق ذا الحبل المتين والبرهان الرصين، بين القراءة والتعلم وبين المفهوم العلمي الدقيق في خلق الإنسان والإشارة إلى هذا الطور الحيوي الهام من أطوار تخلق الإنسان، هذا الطور المبكر جداً الذي لم يكتشفه علماء علم الأجنة إلا مؤخراً، إن هذه الصلة الوثيقة في الآية، ولا سيما حين نعرف أنها أول آية نزلت من القرآن الكريم، حين نعرف ذلك يزداد إيماننا ويعمق يقيننا بربنا خالق هذا الكون ومصور الإنسان من علق.

ثم نلاحظ تكرار لفظة «اقرأ» في هذه الآية أكثر من مرة متلوة بتعظيم الله ووصف نفسه تعالى، بأنه الأكرم بصيغة أفعل التفضيل، ليدل ذلك على عناية الإسلام بالعلم، الذي يكون من وسائله ووسائطه القراءة والقلم، ثم نجد التنويه بتعليم الله للإنسان ما لم يعلمه من قبل وأن الإنسان لا يعلم شيئاً إلا بتعليم الله له، وأن الإنسان يخرج من بطن أمه لا

---

(١) سورة العلق: آيات ١ ـ ٥.

يعلم شيئاً بل لا يعلم حتى أقل الأشياء، كما قال الله تعالى، في آية أخرى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[1].

ثم تقرن القراءة التي هي عنوان العلم ودليله، تقرن هذه القراءة باسم الله، حتى لا تكون قراءة شيطانية أو قراءة لا خير ولا بركة فيها، باسم الله يضفي كل خير يطرد كل شر ويجلب للإنسان القارىء كل حسنة وكل نفع، لأنه باسم الله، وبهذا ربط هذا العلم بالقلم ليدل، كما قلنا، على عظمة وفوائد القلم الذي لا تصلح حياة الإنسان الصلاح الأكمل إلا به، يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ يعني الخط والكتابة، أي علم الإنسان الخط والكتابة بالقلم، وروى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه، سبحانه وتعالى، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العمل، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولاها ما استقامت أمور الدين والدنيا....[2].

والله سبحانه وتعالى، مدح الملائكة بالكتابة وأنهم من الكرام فدل على أن الكتابة بالقلم مما يكرم به عباده. فوصف الملائكة بالكرام ووصفهم بالكتابة، قال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ....﴾[3].

وفي حديث خلق أطوار الجنين وتخلقه وردت الكتابة من قبل الملك

---

(١) سورة النحل: آية ٧٨.

(٢) تفسير القرطبي، مجلد ١٠، ج ٢٠، ص ١٢٠.

(٣) سورة الانفطار: آية ١١.

بعد أن يسأل الله، فعن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، ثم يقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يا رب أجله، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه؟ ليقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص....»[1].

كما نجد في الآية التالية أن الله يقسم بأدوات الكتابة مثل النون التي من معانيها الدواة التي يوضع فيها المداد الذي يكتب به، مثلما أقسم تعالى، بالقلم الذي يؤدي مهمة الكتابة التي تحدثنا عن بعض فوائدها التي تجمع كل المعارف، كما أقسم جل شأنه بالمسطور وهو الشيء المكتوب.

والله تعالى عظيم لا يقسم إلا بما له شأن، ففي هذا القسم دلالة قاطعة على اهتمام الإسلام بالعلم. وهناك كثير من الآيات الدالة على هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[2] وأمر الاعتناء بالعلم والتعلم ليس قاصراً على القرآن فقط، بل جاءت السنة المشرفة طافحة بالحديث عن العلم وتعداد فوائده ومزاياه، كما وردت كثير من أحاديث الرسول ﷺ، في مدح العلماء والثناء عليهم، وتفضيل العالم على العابد ودعاء العوالم للعلماء وطلاب العلم، مما فصلناه في مكان آخر فلا داعي لاعادته هنا[3].

وقد وجه المسلمون اهتمامهم للتعليم منذ فجر الدعوة الأول، حتى إنه في نظام الحروب وفداء الأسرى دخل نظام التعليم لابناء المسلمين مقابل

---

(١) انظر مسلم بشرح النووي، ج ١٩٣، باب القدر.

(٢) سورة القلم: آيات ١ ـ ٢.

(٣) للتوسع انظر كتابنا: منهاج الحياة فصل السنة والعلم.

فداء الأسير، فقد «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ، فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة»[1].

ومن نوافل القول أن نذكر بأن المسلمين لم يعرفوا التعليم المشطور إلى ديني يقتصر على العبادات والمعاملات فقط وأخر علماني، أو بعبارة أدق لا ديني يعني بالاقتصاد والاجتماع والكيمياء والرياضيات والطب. . . لم يعرف المسلمون هذا التقسيم وهذه الثنائية منذ عهد الإسلام الأول من لدن الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين، بل كان المسجد بحِلَقه المتعددة تدرس فيه كل المعارف الإنسانية والعلوم الكونية حتى نبغ علماء مسلمون في شتى فروع العلوم الطبية والهندسية والكيماوية، ليس هنا مجال تفصيلها[2].

ثم استمر هذا النظام التعليمي عند المسلمين في كل الأمصار حتى إنشاء الجامعات الإسلامية النظامية في قرطبة وطليطلة وأشبيلية وغيرها من مدن الأندلس، وفي القيروان وبغداد وصقلية والأزهر، وغيرها من الجامعات الإسلامية التي كان العلم فيها يدرس كله من خلال النظرة الإسلامية، العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، لا يفصل بينها وبين التوحيد والفقه والتفسير والحديث والبلاغة، فلا يقال هذه علوم دينية وتلك علوم دنيا لا علاقة للدين بها، كما فعل الاستعمار مؤخراً عند غزوه للبلاد الإسلامية حيث وضع جامعات علمانية لا يدرس فيها الدين وسماها «مدنية» إلى جوار معاهد ومدارس أخرى سماها «دينية». . . .

ولذلك لما عرف أعداء الإسلام عناية المسلمين وحبهم للعلم أتوهم من هذا الباب وألبسوا كثيراً من المذاهب الهدامة ثوب العلم، ولهذا الغرض التضليلي ترجموا كلمة «Secular» إلى «علمانية» بدلاً من ترجمتها إلى

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ١ص ٢٤٧.
(٢) للتوسع في ذلك، انظر كتابنا منهاج الحياة، فصل العلم التجريبي عند المسلمين.

أصلهـا ومعنـاهـا الحقيقي وهـو «غـير ديني» أو ضـد الـديـن[1] «Non — Religious».

ومن هنا فقد وجه الاستعمار كل عنايته بالتعليم وبدأ يدس فيه سمومه وشجع مدارس الإرساليات التنصيرية لنشر النصرانية في بلاد المسلمين.

وفي الصفحات التالية سوف أحاول عرض خططهم لعلمنة التعليم، الذي هو عصب الحياة بالنسبة للمجتمع ومنشأ أجياله وقائد نهضته وتقدمه، وسيرى القارىء أنهم خططوا لضرب الأمة بضرب التعليم لصبغة الأجيال بالصبغة التي تبعدهم عن دينهم....

---

(١) انظر كتابنا، نشأة العلمانية.

خطوات الاستعمار لعلمنة التعليم

من هذه الخطوات التي دخلت عن طريقها العلمانية للتعليم، إنشاء المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية بحجة تعليم أبناء غير المسلمين فيها، حيث كان التبشير والمبشرون الساعد الأيمن للاستعمار بما يدعونه من مسالمة وخدمة اجتماعية وعلمية وتعليمية، فقد كانوا يعملون على تهدئة الخواطر وتخفيف وطأة الاستعمار، ولذلك فقد وضعهم المستعمر نصب عينيه وحباهم بالرعاية وأحاطهم بالعناية المادية وحرسهم بما لديه من قوة.

ومن الجانب الآخر فقد رأوا أنه لا سبيل للعمل بين المسلمين أجدى وأنفع لخدمة مصالحهم وزعزعة إيمان المسلمين سوى التعليم، ومن هنا فقد وجهوا كل عنايتهم نحوه وشرعوا ينشئون المدارس ويقيمون المعاهد لعلها تصل قلوب المنسلمين بالمسيح!! أو على أقل تقدير أن تجعل عقيدتهم مهزوزة وأفكارهم مشوشة حتى لا يكون للإسلام قرار في نفوسهم، وهذا ما عناه المبشر أو على الأصح المنصر «تكلي» حين يقول: يجب أن نشجع إنشاء المدارس وعلى الأخص مدارس التعليم الأوروبي، الغربي، لأن كثيرين من المسلمين قد تزعزع إيمانهم عندما تعلموا اللغة الإنجليزية، وأن الكتب الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً للغاية....[1].

ولا يكاد يوجد بلد إسلامي يخلو من هذه المدارس الغربية، التي تبث السموم في العقيدة الإسلامية بقصد تشكيك التلاميذ في دينهم

---

(١) انظر كتاب: «Islam And Missions».

ونبيهم، ولقد باتت هذه المدارس والكليات الجامعية معروفة في العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة، وهم أي المنصرون يركزون أكثر على البلاد العربية أكثر من غيرها من البلاد الإسلامية بقصد محو اللغة العربية التي يكتب بها الإسلام ويتلى بها القرآن وتكتب بها السنة.

وهذه المدارس شملت مختلف مراحل التعليم ابتداء «من رياض الأطفال والإبتدائية ومروراً» بالمتوسطة والثانوية إلى الكليات الجامعية، ولأسوق على ذلك أمثلة من البلاد الإسلامية وخاصة العربية، فنجد مثالاً في لبنان الجامعة الأمريكية في بيروت التي ما زالت تنفث سموماً في لبنان الجريح. وكذلك جامعة القديس بولس. وفي القاهرة يوجد عدد من المدارس والكليات منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وكلية البنات الأمريكية بها أيضاً، ونجد في السودان قد أسست كلية غردون التذكارية لغرض التنصير أساساً، ولكن الله أراد أن تكون فيها بعد منارة للإسلام تخرج كثيراً من الشباب المتحمس لدينه الذاب عن حياضه، كما نجد في السودان أيضاً كلية ومدارس «كمبوني» التي تدرس من الروضة[1] ومروراً بكل المراحل حتى مستوى الكلية فهي أخبث المدارس التنصيرية في السودان لاتخاذها شعار الحياد الذي تتدثر به غطاء لمخططها التنصيري الخبيث الماكر....

ونجد في الشرق الأقصى في أندويسيا الجامعة الكاثوليكية بمدينة جاكارتا العاصمة تعمل على جذب الشباب الأندونيسي المسلم من الجنسين. وفي تركيا توجد في مدينة استانبول كلية روبرت على المستوى الجامعي.

---

(١) أسست مدارس «كمبوني» إحياء لذكرى القس الإيطالي المنصر من افريقيا عامة ومن السودان خاصة واسمه كاملاً: «المطران دانيال كمبوني» والذي توفي في الخرطوم عام «١٨٨١ م» ونسبة لنشاطه التنصيري فقد عينه البابا أسقفاً لافريقيا الوسطى كلها.

يقول «تكلي» المبشر النصراني في كتابه السابق: علينا أن نشجع إنشاء المدارس في كل أنحاء البلاد العربية فهي سبيلنا للدخول إلى قلوب المسلمين من غير أن يشعروا بنا كشيء غريب....

ولقد لوّن المنصرون أساليبهم ووسائلهم حيال إخراج المسلمين عن دينهم، فتارة عمدوا إلى الجمعيات الخيرية وأعمال البر والإحسان وأخرى اندسوا خلال الأحزاب الوطنية فأثاروا فيها النعرات القومية وتأليب بعضها على بعض.

نشر العلمانية في التعليم الابتدائي

وهذا هو القس «زويمر» يستبشر ويعلن أن أعمال المبشر، والتعليم المدرسي والتربية الأخلاقية اللذين يُعنى بهما المبشرون قد أسفرا عن نتائج جمة وأثمرا ثمرات نافعة في الأطفال والمراهقين على السواء[1]، فلا بد من العمل وسط الصغار لأن الأثر المفسد للإسلام يبدأ مبكراً ـ على حد زعمهم الباطل ـ فلا بد إذن من الإهتمام بالأطفال. فهو يصف تأثير الإسلام والتربية الإسلامية المبكرة في الطفل وعلى رأسها تعليم القرآن الكريم، يصف ذلك كله بالأثر المفسد، ولهذا السبب اعتنوا بالأطفال في هذه السن حتى يكونوا عجينة سهلة للصياغة، ولهذا السبب عملوا واجتهدوا في إنشاء دور الحضانة ورياض الأطفال والمدارس الابتدائية وبناء الملاجىء لاصطياد الأيتام والمشردين بسبب الفقر والجوع والحروب. ولا سيما بعد ما ضرب الجفاف كثيراً من البلاد الإسلامية وعلى الأخص أفريقيا حيث أخذت منظمات الإغاثة تتسابق على تلك الدول تحت شعار الإغاثة وسعادة المنكوبين والمتضررين وأخذ الأطفال إلى أوروبا وتربيتهم في الكنيسة ثم أعادتهم بعد ذلك لممارسة العمل التنصيري بين بني جلدتهم، فقد بلغت وكالات الإغاثة هذه في السودان وحده مئات المئات كثير منها يعمل حتى بدون ترخيص وإذا اكتشف نشاطها وطردت أو طرد بعضها تضجُّ حكوماتها وتقيم الدينا ولا تقعدها ويحتج السفراء على ذلك في حين أنهم يزعمون أنها تطوعية، فإذا كانت تطوعية فلماذا يحتجون؟! فإن المتطوع

(١) انظر الغارة على العالم الإسلامي لشاتليه.

لا غرض له فإذا رفض المتطوع عليه انسحب المتطوع دون احتجاج، فمثلاً من ضمن هذه المنظمات هناك ست عشرة منظمة كانت تعمل في السودان في أعمال الإغاثة وهي تباشر أعمال التنصير وهدم الإسلام تحت شعار الإغاثة، فلما طردت احتج سفير بلادها لدى حكومة السودان، بل وهدد بإيقاف العون الذي يأتي من بلاده إن لم يسمح لها بالعودة للعمل. تقول صحيفة الراية السودانية:

إن السفير الأمريكي كان قد اجتمع بوكيل الخارجية السودانية أمس الأول حيث أكد له أن الحكومة الأمريكية عازمة على إيقاف العون الأمريكي للسودان في حالة عدم السماح لهذه المنظمات بالعودة للسودان لممارسة أعمالها. . . .[1].

ونعقب على زويمر حيث نجده يقول في كتاب الغارة: إن السياسة الإستعمارية لما قبضت من نصف قرن على برنامج التعليم في المدارس الإبتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام، وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا يهودية، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً. فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة. . . .

وإنا لنجد ما عناه هذا المنصر يصدق في بعض أطرافه وعلى بعض الأجيال في بعض البلاد الإسلامية وإن لم يصدق بإطلاقه على كل الفترات التي ذكرها ولكنه عموماً كان له الأثر الأكبر في زعزعة الإيمان عند كثير من التلاميذ الذين درسوا في مدارس النصارى فهم حقاً قد أبعدوا عن دينهم والتفقة فيه وهذا وحده كاف لإضعاف الإيمان وخلخلته أو الجهل به على أحسن الفروض.

وكان الاستعمار يعمل مظلة لهذه المدارس تحت شعار التعليم المدني

---

(١) العدد ٤٩٨، ٣٠ صفر ١٤٠٨ هـ.

الذي يساعد - في زعمهم - على تنمية موارد البلاد الإسلامية وإدارة شؤونها بتخريج كوادر مدربة على النمط الغربي، ولكي يساعد الإداريين المستعمرين في الإتصال بالمواطنين وسهولة التخاطب معهم إذا هم درسوا اللغات الأوروبية، وبالتالي تخريج أجيال مثقفة ثقافة غربية مما يساعدهم على الاستغراب ويحد من الحملات الموجهة ضدهم.

وهذا ما عناه «جب» من أن التعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل للاستغراب، والحق إن العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه، ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقدار دراسته للفكر الغربي والمبادىء والنظم الغربية.... إن إدخال طرائق جديدة في الفكر في البلاد الإسلامية كان يتطلب نظاماً جديداً في التربية من عهد الطفولة في المدارس الإبتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العليا.... فقد انتشرت في منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية، ولا سيما تركيا وسوريا ومصر، وذلك يرجع، غالباً، إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة، وربما كان أكثرها عدداً المدارس الفرنسية، فقد كانت المدارس الإنجليزية في الإمبراطورية العثمانية أقل منها في الهند، وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية، هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوروبية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي، فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فعلتها في أيام الطفولة....

وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنماء التعليم العلماني تحت إشراف الإنجليز في مصر.....[1].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي، مرجع سابق.

وقد اهتم أعداء الإسلام بالتعليم الغربي، وكما هو معروف، فإن الغرب لم يعد له حظ في الدين، فقد قطع الروابط ما بينه وبين الدين النصراني منذ قيام الثورة الفرنسية العلمانية، فلم تعد مناهج التعليم هناك تهتم بالتربية الدينية[1] بل وحتى في المدارس الكنسية أو كما يسمونها «مدارس اللاهوت» فإنها صارت مسخاً مشوهاً للتصور الديني الذي خلط خلطاً بالنظريات المشبوهة وزج زجاً في الفلسفات المادية التي تحارب الأديان ولذلك فهم عندما يدعون المسلمين إلى التغريب، فإنهم يعرفون أنه بعيد كل البعد عن الأديان، مع العلم بأنها في الحقيقة كلها منسوخة بالإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[2] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

ولذلك فهم يريدون قطع جذور التدين عن المسلمين واقتلاع جذوره من صدور الشباب الغض ان استطاعوا إلى ذلك سبيلاً....

ولذلك لا يضر أن تنشيء حكومات الاستعمار المدارس العلمانية الغربية لأبناء المسلمين ما داموا ينفرون من المدارس التنصيرية من مجرد اسمها، فالكل يؤدي المهمة المنشودة، وهذا ما أكده المبشر «باكر» ووافقه عليه «اكسفلد» حين قال: إن الحكومات لا بد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية ما دام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية...[4].

وهذه المدارس الغربية المنتشرة في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا لا تلتزم الالتزام الكامل بالمناهج التعليمية الوطنية، بل في بعض البلاد لا

---

(١) انظر كتابنا: نشأة العلمانية، ص ٣٣.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٩.
(٣) سورة آل عمران: آية ٨٥.
(٤) المرجع السابق.

تلتزم أصلاً، اللهم إلا بعض الموضوعات، ولكنها مع ذلك تعتمد أساساً على كتب مشبوهة تصور للتلاميذ الإسلام بصورة منفرة وتعرضه عرضاً ساخراً كله طعن وتشكيك، ولا ريب أن القصد من وراء ذلك هو إخراج التلميذ المسلم عن حظيرة دينه، بإبعاد المناهج كلها من أية مسحة إسلامية، بل ويتعدى الأمر ذلك إلى تشويه حقائق الإسلام وتزوير تاريخه.

كتب مشبوهة تدرس للتلاميذ

ولأعرض نموذجاً مبسطاً لنوعية تلك الكتب التي تدرس في تلك المدارس لأبناء المسلمين، وفي بلادهم: من هذه الكتب كتاب يسمى محاضرات «إيزاك» صاغها المستشرق «أ. البا» لطلبة الصف الخامس من تاريخ العصور الوسطى وزعم أنها للشرق الأدنى[1].

وصاحب هذا الكتاب يصوغ مطاعنه في الإسلام على أسلوب ومنهج المستشرقين أمثال «جولد تسيهر» اليهودي المجري الذي شن حملة شعواء على الإسلام، وأمثال «سيبانوزا» و«كازانوفا» شيخ طه حسين الذي جعله عمدة المفسرين الأوحد والذي لم يسبقه أحد من المسلمين لفهم القرآن وتفسيره، على حد تعبيره[2].

ومثل هذه الكتب المشبوهة خطورتها أنها تدرس لتلاميذ ما زالت أذهانهم غضة طرية تتقبل كل ما يلقى عليها بحسن نية ومن غير تأويل أو علامة استفهام تدور حول ما جاء فيها، مما يجعل هذه المعلومات المضللة تصبغ في أدمغتهم ولا تنفك عنها.

وطريقة هذا الكتاب في افتراءاته على الإسلام ونبيه ﷺ، مشابهة لطريقة وأسلوب المستشرق «جوستاف لوبون» الذي جعل الرسول ﷺ، من عداد أولئك الفلاسفة العباقرة «المهووسين» على حد تعبيره الفاسد.

---

(١) مكتوب على الكتاب، طبع بمطابع الآداب الفرنسية ببيروت.

(٢) للتطلع على كلام طه حسين في ذلك، انظر كتابنا: نشأة العلمانية، ص ١٣٨.

يقول صاحب الكتاب، معرفاً التلاميذ بالإسلام: واتفق لمحمد أن يعرف أثناء رحلاته شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولاً....[1].

ويقول طاعنا في السنة النبوية وطاعنا في القرآن بأنه من كلام الرسول ﷺ.

... بينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل....[2].

وهذه الترهات التي يأتي بها أعداء الإسلام للطعن فيه ولزعزعة عقيدة أبناء المسلمين، هي مردودة عليهم، وخاوية من عروشها، فالرسول ﷺ مرسل من عند الله تعالى، لهداية البشرية الضّالة الحيرانة، بعد أن انقطعت عنها رسالات السماء أمداً طويلاً، ولم يبق شيء صحيح خالص من الديانات السابقة إلا وقد امتدت إليه الأيدي بالتحريف والتبديل.

ولهذا لم يكن ثمّ شيء يذكر حتى يقال إن الرسول ﷺ، تعلمه من الديانات السابقة، كما يزعم أعداء الإسلام زوراً وبهتاناً، وكما أنه لم يكن ﷺ، قارئاً وما ينبغي له، حيث نفى الله عنه ذلك. ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[3].

ولقد شهد الله له بالرسالة، وكفى به شهيداً بيننا وبينهم: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

---

(١) انظر تاريخ ايزاك، ص ٣١.

(٢) نفس المرجع، ص ٣٦.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٤٨.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٥٢.

والكلام الذي كان يدون لم يكن من مواعظ الرسول ﷺ، العامة، بل هو القرآن الكريم فقط، أما السنة فكانت تحفظ عن ظهر الغيب ولا تدون، لأنهم قد نهوا عن ذلك خشية أن تختلط بالقرآن، كما هو مبين في كتب السنة، فلم تدون وتكتب إلا بعد وفاة الرسول ﷺ، وانقطاع الوحي، وبعد أن جُمع القرآن ودون تماماً في مصحف واحد، أما في حياته فهو القرآن وحده الذي كان يدون.

ثم إن زعمه أن الصحابة كانوا يكتبون على عجل، فهذا جهل فاضح وكذب واضح ودس رخيص وغبي، ذلك لأن الرسول ﷺ، نفسه قد نهاه الله عن العجلة بالقرآن، فضلاً عن الصحابة: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[1]. ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[2].

وكما ذكرت فإن الرسول ﷺ، قد نهى الصحابة أن يكتبوا غير القرآن، فهذا أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عني ومن كتب عني، غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ ـ قال أحسبه قال ـ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3].

ويروي عروة: أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك. فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً

---

(١) سورة طه، آية ١١٤.

(٢) سورة القيامة، آية ١٦.

(٣) انظر مسلم بشرح النووي، ١٨/ ١٢٩، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم.

فـأكبوا عليهـا وتركـوا كتـاب الله، وإني والله لا أشـوب كتـاب الله لشيء أبداً[1]..

أما الذين أذن لهم النبي ﷺ، بالكتابة فلربما كان ذلك لأجل أنهم ضعيفو الحفظ فأذن لهم بذلك ريثما يحفظونه ثم يمحونه بعد ذلك، كما قال مالك في ذلك: فمن كتب منهم شيء فإنما كان يكتبه ليحفظه فإذا حفظه محاه...[2] وغير ذلك من العلل التي ساقها العلماء لمن أذن لهم النبي ﷺ، بالكتابة.

ولقد عاش الرسول ﷺ، بين قومه، وهم أهل الفصـاحة والبيـان والبلاغة، حياته كلها حتى جاءه الوحي، وطيلة هذه المدة لم يعهد أن تكلم بمثل القرآن أو قريباً منه: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[3].

والنـاظر إلى القـرآن الكريم، يجـده يختلف عن السنة في ألفـاظـه وتراكيبه، مما يدل على أن القرآن ليس من كلام الرسول ﷺ.

ومن ناحية أخرى، نجد أن الآخذ يقلد المأخوذ عنه، ومن شـأن الطالب أن يقلد استاذه، فكيف يستقيم زعمهم هذا، والمأخوذ عنه ـ على زعمهم ـ مثلث العقيدة والآخذ موّحد؟ والمـأخوذ عنـه هو صـاحب هذه الشريعة، فهل يعقل هذا؟! بل إن الله تعالى، قد نهى رسوله محمداً ﷺ، أن يقلد غيره وأن يتبع أهواء الآخرين، لإن الله أرسله بدين ذي شريعة قائمة على القسطاس المستقيم: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾[4].

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧٦ كراهية كتابة العلم.

(٢) للتوسع انظر، السنة قبل التدوين، وجامع بيان العلم.

(٣) سورة يونس، آية ١٦.

(٤) سورة الجاثية، آية ١٨.

وكيف يستقيم هذا الهراء الأجوف الذي عَرِيَ عن الحقيقة وتلبس بالباطل، وأن الرسول ﷺ نفسه ينهى عن التقليد الأعمى في كل الأمور، فهل يستقيم عقلاً أن يقلد هو تلك الأديان المنزل عليه في القرآن أنها منسوخة بهذه الشريعة الجامعة المانعة، يقول الرسول ﷺ ناهياً عن التقليد غير الواعي الذي لا يميز صاحبه الصالح والطالح والغث والثمين: «لا يكون أحدكم أمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجنبوا إساءتهم»[1].

ولقد ربى أصحابه على هذه الإستقلالية، ولهذا وبخ عمر رضي الله عنه عندما وجد في يده صحيفة من التوراة، وبّخه بقوله: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! فوالله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني، لقد جئتكم بها بيضاء نقية....»[2].

أما اتباع عامة المسلمين اليوم لغيرهم من الأمم وتقليدهم والخضوع لهم والإعجاب بهم.... كل ذلك وغيره، قد نبه عليه الرسول ﷺ وحذر منه عن طريق هذا البيان والتنبيه بقوله:

«لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه...»[3].

ذلك هو بعض ما نبه به وحذر به أمته مما ستؤول إليه حالها فيما بعد إن هي خالفت سنته فإنها ستتبع سنن الأمم غير الإسلامية، ومما يؤسف له فقد فعل كثير من المسلمين حكومات وشعوباً.... إلا من رحم ربي وقليل ما هم.....

---

(١) صحيح الترمذي، كتاب البر، باب ٦٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، ص ٣٨٧.

(٣) انظر مسلم بشرح النووي، ج ١٦، ص: ٢١٩.

أفبعد هذا يأتي هؤلاء الخرّاصون ويزعمون أن الرسول محمد ﷺ، اتفق له أثناء رحلاته أن يأخذ شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى؟! كبرت كلمة نتنة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

وأما تلك الرحلات التي أشاروا إليها وأن الرسول ﷺ، عرف شيئاً من عقائد اليهود والنصارى عن طريقها، فإنه لم يحصل له ﷺ، لقاء مباشر بينه وبين الرهبان الذين مرّ بهم في رحلته، فقد كانت الأولى مع عمه أبي طالب، وهو صغير لم يتجاوز الإثنتي عشرة سنة حتى إن قريشاً خلفته في رحالها عندما دعاهم الراهب «بحيرى» إلى طعام صنعه لهم، وكل ما جرى من محادثة بينه وبين الرسول ﷺ، أنه سأله عن أحوال ليرى هل تطابق الأوصاف التي عنده من ظهور نبي في هذا العصر أم لا؟[1] ولم يسجل التاريخ أي حوار أو أخذ وعطاء بينهما غير ذلك وكان معه شهود كثيرون ومنهم من صار ضده وعارضه فيما بعد، فلو كان ما جاء به شيئاً ما أخذه من تلك الرحلات لافتضح أمره من عدوه المتربص المتصيد لمثل هذه الأمور، ولكن التاريخ يقول شيئاً من ذلك لم يحدث البتة.....

أما الرحلة الأخرى فقد كانت عند سفره بأموال خديجة رضي الله عنها للتجارة وكان معه خادمها «ميسرة» الذي تحدث هو معه الراهب «نسطورا» ولم يكن رسول الله ﷺ، قال ابن هشام:

فنزل رسول الله ﷺ، في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له:

من هذا الرجل الذي تحت هذه الشجرة؟.

قال له ميسرة:

هذا رجل من قريش من أهل الحرم.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/١٦٦، البداية والنهاية ٢/٢٨٣، وتحفة الأحوذي ١/٢٩٣.

فقال الراهب:

ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي . . .[1].

وهذه القصص بما فيها قصة ورقة بن نوفل، تثبت عكس ما يزعم المبطلون، فهي تثبت نبوته ورسالته، عليه الصلاة والسلام، الشيء الذي يدحض أكاذيبهم ويسفهم الملّ.

وغير ذلك كثير من أمثال هذه الكتب التي تدرس في مثل هذه المدارس في البلاد الإسلامية، حيث عملت عملها في زعزعة عقائد الناشئة من أبناء المسلمين مما جعلهم يعجبون كل العجب بمدنية الغرب الجوفاء.

ولقد شهدنا بعضاً من إفساد هذه المدارس للصغار حيث كانوا يجمعون الأطفال في فناء المدرسة ويرمونهم بالحجارة حتى يخاف الأطفال ويفزعون ويرتاعون، وعندها يقولون لهم هذا محمد الذي يزعم أنه نبي ولكنه ليس بنبي، بل هو ساحر!! أما ترونه يرميكم بالحجارة!! وهو قاس وشرير أتعرفون كيف تتخلصون منه؟ فيقول الأطفال في براءة:

لا، لا، لا نعرف، عرفنا كيف يا أستاذ؟.

فيقول لهم القسيس المدرس:

أنا لا أستطيع أن أخلصكم منه، ولكن أبونا يسوع المسيح الرب هو الذي يخلصكم منه وهو الذي يرحمكم. . . . ثم يدخلهم الفصل ويوزع عليهم الحلوى قائلاً لهم:

هذه الحلوى جاءتكم من أبوكم الرب المخلص يسوع المسيح ليبارككم بها، فهو رؤوف رحيم شفوق!!؟.

وهكذا يأتي الطفل الصغير ويبدأ ينادي: تعالى يا أبي الرب يسوع المسيح . . . تعالى خلصني وارحمني. . . .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٧٢، والبداية والنهاية ٢/٢٩٤.

ذلـك جزء من إفسـادهم لأبناء المسلمـين قاتلهم الله أنى يؤفكـون وأحبط أعمالهم ورد كيدهم في نحورهم.

التعليم بعد خروج الاستعمار

لم يخرج المستعمر من البلاد الإسلامية التي كان يستعمرها، إلا بعد أن وضع الأسس التي يطمئن إليها في برامج التعليم في شتى مراحله.

ومن تلك الخطط التي وضعوها للتعليم والاتجاه به نحو الوجهة التي تخدم مصالحهم في تلك البلاد:

الثنائية في التعليم:

لقد ذكرت من قبل أن المسلمين لم يعرفوا الثنائية في التعليم بمعنى أن تدرس فئة من المسلمين العلوم التي يسمونها «بالدينية» فقط ولا تعرف شيئاً عن بقية العلوم التي يفيد منها الإنسان. كالعلوم التجريبية والإنسانية... وتدرس فئة أخرى هذه العلوم بمعزل عن العلوم الشرعية الأخرى، ولا تعرف عنها شيئاً، بل كان المسلمون يدرسون كل ما يستطيعون دراسته، وقد عرف منهم علماء موسوعيون برعوا في كل العلوم الشرعية وغيرها، على حد سواء عند كثير منهم.

وفي مقابل هذا الفصل أو العزل للعلوم اتجهوا إلى إنماء وزيادة المدارس العلمانية وعزلها عن العلوم الإسلامية، إلا النذر القليل والقليل جداً.

وقد وجه هذا التعليم العلماني، وجهة غربية تماماً، كما قال «جب»[1]:

---

(١) انظر كتابه «Whither Islam p: 329».

إن السبيل الوحيد للحكم على مدى التغريب «أو الفرنجة» هو أن نبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادىء الغربية، وعلى التفكير الغربي. . .

ويستطرد مؤكداً ومركزاً على هذا التغريب الذي يضمن به تبعية العالم الإسلامي للغرب في تفكيره وثقافته ووسائل حياته كلها، الذي يضمن به هو، تلقين الطلاب هذا المنهج الغربي، والعلوم والآداب الغربية حتى يتشبع الطالب بروح ومضمون الثقافة الغربية العلمانية. ومن هنا يضمن المستعمر أنه قبض على زمام الأمر، لأن هذا الجيل عندما يتخرج ويتسلم مقاليد الأمور، سوف لا يعرف غير الوجهة الغربية ولذلك عنده أن الأساس الأول في كل ذلك، هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي. وعلى المبادىء الغربية. وعلى التفكير الغربي. . . هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره. . .

وقد رأينا المراحل التي مرّ بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين. . . إلخ[1].

إقصاء التعليم عن الدين:

وقد بدأ التدرج بنوع خاص وجديد من التعليم الذي عزل عن التعليم الإسلامي عزلاً تاماً، واخترعوا له اسماً ساطعاً براقاً، في ظاهره الرحمة ومن قبله العذاب، فقالوا عنه: إنه تعليم «مدني — Secular Educatior» ومعروف أن هذه الكلمة «مدني» هي إحدى الترجمات التي ترجموا إليها كلمة «Secular»[2] فقد ترجمت هذه الكلمة الأجنبية مرة

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٣٢.

(٢) انظر كتابنا، نشأت العلمانية، ص: ١٥.

بـ «مدني» ومرة بـ «علماني» تعمية لها عن معناها الحقيقي وهو «غير ديني» إذن، كلمة «تعليم مدني» هي في مقابل، تعليم ديني، وعكسها تماماً تعليم «لا ديني».

فلما وجدوا أن هذه الأخيرة منفرة ولا يقبلها ذوق المسلم الصادق الإيمان، غلّفوها بهذا الغلاف وألبسوها قميص الثعبان الذي يخفي تحته السم الزعاف. ولما لكلمة، مدنية وتمدن، من نغمة مستطابة وصوت مستعذب يستهوي الأنفس، لأن الإنسان بفطرته يحب التمدن ويشغف به وتشرئب إليه نفسه وتتوق...

وعلى هذا المنوال نسج صانعوا التعليم المدني أو قل غير الديني أو العاري عن الدين. فكانت الحصص التي فيها شيء من الدروس ذات الصبغة الدينية قليلة للغاية، في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة شيئاً لا يسمن ولا يغني من جوع في مقابل العلوم الأخرى التي أقصيت عن الدين، وحتى هذا المسوح القليل إنما جعل ذرا للرماد في العيون، وتخديراً للأعصاب حتى يقال هذه المدارس تدرس الدين!!!.

ثم تجعل هذه الحصص الدينية في آخر اليوم الدراسي حيث يكل الذهن وتقل الرغبة في متابعة الدرس، فيتلقاها الطالب بفتور وملل، هذا إذا كان مستيقظاً، وإلا فهو قد وضع رأسه على «الدرج» الذي أمامه وأسلم نفسه للنوم فلا يدري ماذا يقال، أو فاته الكثير عندما توقظه صيحة المدرس.....

أما مدرس المادة «الدينية» فهو مختار ومنتقى، ولكن على أي أسس، وبأي طريقة اختير؟! فهل اختير على أساس الكفاءة والمقدرة العليمة؟ أم على أساس النشاط والحماس والذهن الوقاد؟ أم على أساس القريحة النافذة والمؤلفات الجمة؟ وهل اختير على أساس الجدارة العلمية المتفردة أم على أساس التخصص النادر الفذ...؟.

ليس على هذا ولا على ذاك اختير مدرس مادة «الدين»، ولكن صورته التي تقابلنا هي أنه شيخ قد احدودب ظهره وخلط بسبب الشيخوخة في معلوماته، بل وأصبح جسمه لا يساعده على القيام ليكتب على «السبورة» وصوته خفت وتوراى خلف حباله الصوتية التي أنهكتها السبعون عاماً التي مضت منذ ثمانية أعوام خلت. . . .

فيقترن منظر هذا الشيخ الذاهب بمادة الدين شيخوخته توحي بشيخوختها وعجزه ينبىء بفنائها، وصوته الخافت يحدث التلاميذ عن عدم جدواها، وتحريف وتصحيف المعلومات في ذهنه يذهب بفائدتها، وعامة منظره يذهب برونقها.

وهكذا تتضافر الجهود على هذه المادة فتصبح عند الطلاب نسياً منسياً وثوباً خلقاً ومادة متخلفة. . . ثم يأتي ثالثة الأثافي بأن يقال للطلاب إن مادة الدين مادة اختيارية!! بل لقد رأيت في بعض المدارس والجامعات في بعض البلاد الإسلامية أن هذه المادة تحذف من الشهادة أصلاً وتأتي نسبة النجاح بدونها ولا تعد في المعدل التراكمي أو النسبة المئوية للطالب. . . ومن ثم ينقدح في ذهن الطالب عدم أهميتها، وبالتالي عدم أهمية الدين نفسه. . .

هذا بالإضافة إلى إهانة مدرس الدين من الناحية المادية والتي تتبعها الإهانة والإزدراء المعنوي. فراتبه أقل الرواتب بل راتب «الفراش» وحارس المدرسة أعلى منه!! ويقال له: أنت شيخ تريد الآخرة ولا تريد الدنيا والمادة يطلبها من يريد الدنيا؟!!.

والإزدراء الآخر والذي ينفر الطلاب من دروس الدين بل ومن سلوك التدين أصلاً، أنهم حرموا على مدرس الدين أن يتولى منصباً إدارياً مهما كانت مدة خدمته ومهما كانت كفاءته ومهما كانت مقدرته العلمية والذهنية، فهو دائماً تابع وليس متبوعاً، يسير في ذيل القافلة.

أما مدرس المواد التي أقصيت عن الدين فبينه وبين الأول بعد ما بين الثرى والثريا، فهو يختار من ذوي اللياقة والحيوية والشباب الحي النابض بهندام جميل وتخصص رفيع، ويوضع له كل تقدير واحترام وراتبه يزيد على الحاجة، ويخلعون عليه سيماء أهل الغرب ويحاولونه أن يتخلق بأخلاقهم ويعتاد عادتهم ويلوي لسانه بكلامهم «الرطانة»!!!.

وهكذا يلَمَّع الأستاذ للطلاب وهكذا تحبب إليهم المواد التي أبعدت عن الدين. . . . وهكذا يخلع الدين من عالمهم وتخلع محبته من قلوبهم بهذه الوسائل الماكرة الخبيثة: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[1] ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[2] ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾[3] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[4].

ذلك ما كان في المرحلة الابتدائية والتي تليها، أما في المرحلة الثانوية فلا يكاد يوجد ذكر لهذه المواد الإسلامية، وقد عمدوا إلى تقسيم الطلاب إلى فصول علمية وأخرى أدبية حيث تنعدم مادة الدين في القسم العلمي وتنحصر انحصاراً ضيقاً في القسم الأدبي، فيجعل لكل المواد الإسلامية كتيباً واحداً يعنون له بإسم «الدين» توضع فيه نتف من هنا ومن هناك شذر مذر، لا تزيد حصيلة الطالب في الثقافة الإسلامية إلا تشويشاً وتمسخ معلوماته مسخاً مشوهاً، هذا مع ارتباطها بالمدرس الذي ذكرناه آنفاً، في حين أن المواد الأخرى، نجد لكل مادة كتاباً منفصلاً، وربما كتابين اثنين، ولا يوجد ذكر لإسم الدين أو التربية الإسلامية في الجامعات العلمانية التي

---

(١) سورة الطارق: آية ١٦.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٨٣.
(٣) سورة مريم: آية ٧٥.
(٤) سورة الفجر: آية ١٤.

يطلقون عليها اسم «مدنية» وكأن الطالب لا يعنيه شيء في الإسلام، أو كأنه لم يكن مكلفاً بأمور الشريعة، بل حتى القدر الذي يؤدي به عباداته اليومية لا يكاد يعرف عنه شيئاً إلا النـذر الضئيل، عنـد من يهديـه الله ليلتمس الطريق بنفسه.

وحتى في البلاد التي تتمسك بالإسلام نوعاً ما، نجدها تخصص مادة للثقافة الإسلامية تدرس معلومات عامة عن الإسلام في بعض الكليات، في حين أن الإتجـاه العام والسليم للطالب المسلم أن لا يفصل «الإسلام» والثقافة الإسلامية في مواد بمفردها، بل ينبغي أن يدخل الإسلام في كل أنواع العلوم والمعارف وتدرس المواد من خلاله دراسة لا تشعر الطالب بأن ثمة مواد «دينية» وأخرى ليس للدين بها علاقة، فيدخل الإسلام في مواد مثل الطب والهندسة بأنواعها والرياضيات بكل فروعها والكيمياء والفيزياء والجيـولوجيـا وعلوم البحار وعلم الفلك والجغـرافيا والتـاريـخ والعـلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع، والإعلام... إلخ حتى يعرف الطالب أن دينه يعني بكل شؤون الحياة، كما هو واقع الإسلام الفعلي، وكما فهمه المسلمون الأوائـل. وبهذا يتخـرج الطالب المسلم بثقـافة إسـلامية متكاملة لا ينخذع أمام البهرج الغربي الزائف ولا يكتسحه سيل التيارات الجارف.... ومن هنا يتحقق فيه المسلم الواعي بدينه العارف بمتطلبات مجتمعه المسلم، لا كما تكونه سلسلات الكتب المشبوهة التي تنشرها دور نشر تعمل وتعمد وتقصد التشكيك في الإسلام، ويحضرني الآن نوع آخر من هذه الكتب أرى أن أعرض على القارىء نماذج ومقتطفات وأجزاء ونتف صغيرة منه على سبيل الوقوف على الحقيقة حتى يظهر جلياً ما يحاك ويدبر لأجيالنا ونحن غافلون:

كيـف نَفْهـمُ الأطفـال

هـذا العنوان لعـدد من المطبـوعات جعلوهـا في شكل كتيبـات أو نشرات، تحت العنوان السابق وأحياناً يسمونها: دراسات «سيكولوجية» أو

دراسة نفسية الطفل «Psychological Studies» والعبارات الأخاذة النفاذة ذات الرنين والطنين تكثر في هذه السلسلة، فنجد مثلاً عبارات علم النفس للأباء وعلم النفس للمدرسين أو تجمع العبارة ويقال: علم النفس للمدرسين والآباء.... ونجد أيضاً على إحدى صفحات الغلاف في بعض الطبعات[1] عبارة: الطريق إلى حياة أفضل.... والناشر لهذه السلسلة - المزعومة بأنها تعني بالتربية - هو، شركة أمريكية تسمى: مؤسسة فراكلين.

والشيء الأدهى والأمر، الذي يحز في النفس ويطعمها علقماً مرّ المذاق ويجعل في الحلق غصة، أن يتولى الثناء والتقديم بعبارات فضفاضة، رجل تربوي مسلم في بلد مسلمة، وهو الدكتور عبدالعزيز القوصي، وليته أشار إلى الجوانب الرديئة وغير اللائقة بالطفل المسلم والأب المسلم والمعلم المسلم، ليته أشار ولو بعبارة وإشارة بعيدة عما يخالف التربية الصحيحة وقواعدها السليمة والأخلاق القويمة، فإن ما في الكتاب ينفر منه كل صاحب ذوق صاف ويبتعد عنه كل ذو مروءة وشيم حميدة، ولكنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي هي في الصدور....

يقول الدكتور في الثناء على السلسلة:

.... هذا هو الكتاب الأول في مجموعة من الكتب تهدف إلى توجيه الأباء والمدرسين إلى أحسن من تلك التي يعيشونها، ولا نقصد بالحياة الأحسن أن تكون من الناحية المادية، وإنما هي أحسن من حيث الأداء لرسالة الأبوة ورسالة التربية....

هذه شهادة رجل يقوم على رأس التعليم في شتى جوانبه يشهد، بل ويفرض مثل هذه الكتب التي سوف أطلعكم - إن شاء الله - على أجزاء منها، يثني عليها بأنها تؤدي رسالة تقود إلى حياة أفضل ورسالة تربوية فضلى!! إذن دعونا نحث الخطى عجلى لنرى هذه الرسالة التربوية التي

---

(١) كانت أول طبعة للسلسلة سنة ١٩٥٥، ثم طبعت طبعة أخرى عام ١٩٧٧ م.

جاءت بها هذه الكتب المسلسلة وليحكم عليها بعد ذلك القارىء المسلم، هل هي فعلاً تؤدي إلى حياة تربوية مثلى بالنسبة للمسلم، أم أنها تهدم فيه الأخلاق الفاضلة وتدمر فيه النخوة الإسلامية وتقتل فيه الروح الفطرية التي غرسها الله في البشر؟!!:

يبرز المؤلف في هذا العدد هذا العنوان بوضوح:

«الطفـل والأمـور الجنسيـة»

وهكذا بدون حياء، ولا حياء أصلاً عند من يظهر ذلك كعنوان بارز ويزعم أنه يؤدي إلى حياة تربوية أفضل؟! جعل هذا المقطع في شكل أسئلة يقـدمها لـلآباء، ومن مـا هو معـروف أن الأسئلة تثـير فضـول الإنسـان وتحفـزه لمعرفة الجواب وتشده للمسئول عنه وتجذب انتباهه إليه في شوق ولهف، وعموماً فإن أنجع الوسائل لتقبل الشيء أو الرأي أو من أكثر الوسائل المؤثرة في الإنسان هو أسلوب السؤال والجواب، وهو أكثر المقروءات والمسموعات دخولاً للحافظة وأكثرها استقراراً في «بؤرة» أللا شعور وتخزينها. . .

ولهذا السبب المؤثر نرى هذا الكاتب الأمريكي يثير السؤال ويجيب عنـه بالإجـابات التي يـراها تخـدم غرضـه في هـدم الفضيلة في نفـوس المسلمين، يقول: هل ترى في التعبير السافر عن المحبة ما ينبىء عن ذوق رديء أو ما يثير الحرج؟!![1] والجواب السليم في زعم الكاتب الأمريكي هو: لا، والتعبير السافر عن المحبة المقصود به نوع خاص عن علاقـات الحب بين الجنسين، ذلك هو الذي تحصل فيه الخلوة بالحبيبة وتحصل منه الملامسات والقبلات وغيرها من الأشياء التي شاعت وذاعت عند الغربيين، وهم يرون أن لا حرج فيها. لأن مقياس ومعيار الفضيلة والأخلاق قـد انطمس في حاستهم العمياء فأصبحوا؛ إما أنهم لا يميـزون بين الفضيلة

---

(١) انظر ٢٢ من السلسلة.

وضدها من الأخلاق الذميمة، أو أن الآية انقلبت عندهم وطمس الله على بصائرهم ومحا الفضيلة في معالمها. . . .

ولكن ديننا الإسلامي، يحرم ذلك النوع من الاختلاط ويحرم الخلوة بالأجنبية، بل حتى النظر المستديم إليها، حيث أمر بغض البصر لما يترتب عليه من مفاسد غير خافية على ذي بصر وبصيرة: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[1].

مثل هذا الحب عندنا، معشر المسلمين، ليس فيه حرج فقط، بل هو حرام قطعي لا يقبل مواربة ولا يحتمل تأويلاً.

ومن ناحية ثانية يدعو الكتاب[2] الأباء إلى التعري أمام أطفالهم ويحثهم على ذلك حتى يتعود الأبناء الشجاعة في مثل هذه الأمور الجنسية «!!» ولا يواجهونها بحرج ولا خوف ولا وجل!! حتى يصبح العري أمراً عادياً عندهم ويشبون على ذلك وهم يمتلكون زمام أدب الجنس «المكشوف»!!.

وهذه هي التربية المثلي التي تقود إلى حياة أفضل في نظر الكاتب الأمريكي ومن نسج نسجه ولف لفه، واقتفى أثره من أبناء فكره «المتأسلمين».

فلينظر القارىء الآن إلى هذا النص ويفحصه جيداً:

إن كثيراً من الآباء اليوم لا يكترثون للظهور مجردين من الثياب أمام

---

(١) سورة النور: آيات ٣٠ - ٣١.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٥ وما بعدها.

أطفالهم الصغار، وهذا أمر لم يكن يحدث في الماضي إلا نـادراً، كذلـك أصبحت أبواب الحمامات وغرف النوم تترك مفتوحة أحياناً فيرى الصغار أبويهم وهم يخلعون ملابسهم، أو يرتدونها، فإذا كان في وسع الآبـاء أن يفعلوا ذلك بصورة طبيعية ودون شعور بالحرج أو الاضطراب، فإن ذلك يكون مراناً طبيعياً، لأنه يعود الطفل على أن الشعور بالجنس ليس أمراً مشيناً (!!) كما يساعد على إشباع فضوله فيما يتعلق بأجسام الكبار!!!؟.

تلك هي التربية في معيـار هؤلاء التي يريـدون بها إفسـاد أخلاق أطفالنا حتى يشبوا على مثل هذه الأخلاق الذميمة التي ينفر منهـا الذوق السليم ويأباها العرف في المجتمع المسلم وتحرمها الشريعة الإسلامية وهم يقصدون بهذا لكي يسهل عليهم اصطياد الأطفال الذين تربوا على مثل هـذه التربيـة، وقرأوا مثـل هـذه الكتب، بعـد أن أبعـدت عنهم المـواد الإسلامية التي تهذب الأخلاق وتعـود الطفـل على الفضيلة وتغـرس فيه مكارم الأخلاق والعفة والحياء، الذي هو شعبة من شعب الإيمان.

روى البخـاري بسنده عن سـالم بن عبدالله عن أبيـه أن رسـول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان»[1].

تلكم هي الصور التي يريدون أن يتعودها الطفل حتى تصير عنده طبيعية ومألوفة، من تكشف الآباء أمام أبنائهم وتركهم غرف النوم مفتوحة ليطلع الأطفال على أسرار آبائهم وأمهاتهم وهم في مخادعهم، وكذلك ترك أبواب الحمامات مفتوحة، يساعد على إشبـاع فضول الـطفل فيـما يتعلق بأجسام الكبار!!.

وما هو يا ترى فضول الطفل ورغبته في أن يرى جسم أبيه أو أمه

---

(١) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧٤/١ باب الحياء من الإيمان.

عاريين؟! وما الفائدة التربوية التي تعود على الطفل من وراء ذلك؟! أهي أن يتعود العري والسفور والوقاحة وقلة الحياء منذ نعومة أظفـاره ليكون ذلك أمراً عادياً ومألوفاً عنده حين يشب عن الطوق؟ فيتعرى هو كذلك؟ هذا هو الذي يقرره الكاتب ويريده للطفل المسلم، أن يخرج من دينه بهذه الأساليب الخبيثة المـاكرة، ولكن الله عـلى مكرهم لقـدير، ولنـا في أدب الإسلام للطفل والأب والمدرس لمخرج.

من أدب الإسلام وتربيته للطفل

النظام الإسلامي يقيد الدخول على الآباء بقيود كلها عفاف وطهر ونقاء، ترمي إلى تهذيب المجتمع وتقويمه بتربية الناشئة على الأخلاق الفاضلة والأدب الحسن.

الإسلام يمنع الإنسان أن يدخل بيتاً غير بيته حتى يستأنس بمعرفة أهل البيت له وإذنهم له بالدخول، وإذا كان صاحب الدار غير مستعد لاستقباله لعذر يعرفه هو، ولم يأذن له بالدخول، سواء كان عدم الإذن صريحاً، كأن يقول له: أنا الآن مشغول أو يقول له: لا أستطيع الآن مقابلتك، أو يصمت ولا يتكلم معه من خلف الباب ولا يرد عليه بصوت يسمعه أو يفتح النافذة ثم يغلقها ثانية والطارق ينظر أو يضع علامة على الباب تدل على أنه لا يستقبل أحداً من الزوار في مثل هذا الوقت، أو يعرف عند الناس بعادة أنه لا يستقبل فيها أحداً، كأن يعرف عنه أنه لا يستقبل زائراً للأنس ونحوه بعد صلاة العشاء مثلاً، أو يحدد أوقاتاً يعينها لاستقبال الزوار فيها. . . . إلخ وغير ذلك من عبارات الكتابة عن الأعذار غير الصريحة. . . . فينبغي على الزائر المستأذن في مثل هذه الحالات من الأعذار، سواء الصريحة منها أو المكنى عنها، أن يرجع ولا يلح بطلب الدخول، لأن في إلحاحه ما يؤذي رب الدار ويوقعه في حرج وضيق لا يحس به الزائر أو المستأذن.

وعلى المستأذن أن يراعي آداب الإذن مثل أن يطرق ثلاث طرقات متقطعات على فترات متباعدات وتكون كل طرقة من القوة المتوسطة بحيث

يقع معها اليقين بأن رب الدار قد سمعها. وتكون كل واحدة من الثلاث أقوى من سابقتها، ولكن لا يكون الطرق قوياً قوة متفاحشة تفوق الحد المعقول عرفاً. بحيث تسبب الإزعاج لرب الدار، بل ولربما سببت إزعاجاً للجيران. . . فإذا لم يؤذن له بعد كل ذلك عليه أن يرجع ملتمساً العذر لأخيه ولا يعنف عليه إذا قابله ولا يمسك عليه في نفسه إذا لم يقابله ولا يقطع صلته به، بل عليه أن يرجع راضياً مرضياً لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى صاحب المنزل ذاكراً قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[1].

يقول القرطبي معلقاً على هذه الآية:

لما خصص الله ابن آدم الذي كرمه وفضله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملكهم الاستمتاع بها على الإنفراد، وحجر على الخلق أن يطلع على ما فيها من خارج أو يلجها من غير إذن أربابها، أدبهم بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة[2]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال:

«من أطلع في بيت قوم من غير إذنهم حل لهم أن يفقؤا عينه»[3].

وهذا التغليظ في الحفاظ على عورات الناس والزجر عن هتك

---

(١) سورة النور: آيات ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) انظر القرطبي التفسير المجلد السادس ٢١٢/١٢.

(٣) انظر مسلم بشرح النووي ج ١٤ ص ١٣٨ كتاب الآداب.

أعراضهم، كل ذلك هو منهج الإسلام في التربية للأجيال حتى يشبوا عليه ويشيبوا عليه.

وقد ذكر العلماء أن سبب نزول هذه الآية شكوى امرأة إلى النبي ﷺ، من أنها تكون في بيتها على أحوال خاصة وموغلة في الخصوصية لا تحب أن يراها أحد عليها، لا ولد ولا والد، لا امرأة مثلها ولا رجل حتى من محارمها، لأنها ربما تكون في ساعة استرخاء وهي حالة يود الإنسان أن يتخفف فيها من الثياب، لننظر إلى الحديث التالي: يقول القرطبي[1]:

سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وغيره عن عدي بن ثابت، أن امرأة من الأنصار قالت:

يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، وأنه لا يزال يدخل عليّ من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟! فنزلت الآية، فقال أبو بكر، رضي الله عنه، يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[2].

فنحن نرى هنا حتى البيوت غير المسكونة يشترط لدخولها أن تكون لنا فيها مصلحة وحاجة ومتاع، وهذا كله ابتعاد بالإنسان عن مواطن الشبه والشك والريب.

ثم هناك معنى وملاحظة غاية في الدقة في اشتراط الإذن من رب المنزل، وهو «الاستئناس» الذي ذكر علة في الإذن في الدخول، وهذا يؤخذ

(١) انظر تفسير القرطبي ١٢/٢١٣.
(٢) سورة النور: آية ٢٩.

من معنى ومدلول نفس الكلمة «استئناس» وهو الاطمئنان والسكينة والهدوء، وذلك لأنك لو استأذنت من رب الدار وعرفك وعرف مقصدك من الحضور إليه، اطمأن لك وسكن إليك وألفك وتعرف على قصدك وحاجتك، فيكون بذلك الإذن هادىء البال مرتاح النفس منشرح الصدر رابط الجأش ساكن الجنان، فيأخذ ويعطي معك على طريقة صحيحة سليمة. . .

والعكس تماماً لو أنك اقتحمت عليه اقتحاماً، فهو عندئذٍ لم يأنس بك ولم يطمئن لك، ولا يعرف لم جئت، وما مقصدك وبالتالي يكون مشتت البال مزعزع، الخواطر متنازع النفس فيحصل عدم الأنس وتنفر السكينة ولا يحصل المقصود من المجيء ولا تتم الفائدة من الزيارة، ولهذا كان النبي ﷺ، لا يطرق أهله ليلاً، وإذا جاء بدأ بالمسجد، حتى يعرفه الجميع ويعرفون حضوره. ونهى عن ذلك كما في قوله لمن أراد الدخول ليلا «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً[1] لكي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة[2]».

ولم يقل افتحوا غرف النوم واتركوا أبواب الحمامات مفتوحة ليراكم الأطفال!!!.

وما ذكرناه من الطرق على الأبواب أو قرع الأجراس التي تكون عليها، هو في البيوت التي لها أسوار ولها أبواب، أما في البيوت التي ليس لها أسوار وليس لها أبواب كمساكن أهل البادية وبعض القرى فإن الاستئذان يكون بوسائل غير ذلك، مثل التسبيح بأن يقول من على بعد، سبحان الله، أو الهيللة، كأن يقول: لا إله إلا الله. . . . ويتنحنح وينتخم. . . . أو يقول: السلام عليكم يا أهل الدار أو يا أهل البيت، يرفع بذلك صوته غير ناظر لداخل البيت.

---

(١) المقصود بالدخول ليلاً أي عشاء وقبل نوم الناس حتى يروكم.

(٢) البخاري بشرحه فتح الباري كتاب الأدب باب نكاح الأبكار.

ففي سنن ابن ماجه عن أبي أيوب الأنصاري، قال قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح ويؤذن أهل البيت»[1].

وقد ذكرت أن الإستئذان يكون ثلاثاً ولا ينبغي أن يزيد عليها إلا إذا تأكد أن من في الدار لم يسمعه، وهذا الذي عليه عامة الفقهاء وهو الذي وردت به الآثار على أنه السنة، ففي حديث أبي موسى الأشعري، الذي استعمله مع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخدري، ثم أبي بن كعب، فقد جاء فيه عن أبي سعيد قال:

استأذن أبو موسى على عمر، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فقال عمر: واحدة، ثم سكت ساعة، ثم قال: السلام عليكم، أأدخل؟ فقال عمر: ثنتان، ثم سكت ساعة، فقال: السلام عليك أأدخل؟ فقال عمر: ثلاث، ثم رجع، فقال عمر للبواب: ما صنع؟ قال رجع، قال: عليّ به، فلما جاءه، قال: ما هذا الذي صنعت؟ قال: السنة، قال: السنة؟! والله لتأتيني على هذا ببرهان وبينة أو لأفعلن بك، قال: فأتانا ونحن رفقة من الأنصار، فقال: يا معشر الأنصار ألستم أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ ألم يقول رسول الله ﷺ: الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلا فارجع؟ فجعل القوم يمازحونه، قال أبو سعيد: ثم رفعت رأسي إليه فقلت: ما أصابك في هذا من العقوبة فأنا شريكك، قال فأتى عمر فأخبره بذلك فقال عمر: ما كنت علمت بهذا[2].

ومن آداب الاستئذان في مثل هذه المساكن المفتوحة أو التي ليس لها أبواب أو أسوار أن يقف المستأذن بجوار البيت من ناحية تستره مِنْ مَنْ

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن وأحمد في المسند بألفاظ مختلفة.

(٢) انظر صحيح الترمذي أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في الاستئذان ثلاث، حديق رقم ٢٨٣١، ٤/١٥٧.

بداخله، ولا يستقبله بوجهه، ولقد جاءت السنة بذلك ففي سنن أبي داود[1] عن عبدالله بن بشر قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه. ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم، السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور.

ذلك ما كان في أدب الزيارة عامة، وقد خص أولئك الذين يتصلون بأرباب المنازل اتصالاً مباشراً ويقومون بخدمتهم والعمل على راحتهم ومساعدتهم، خصهم بأوقات ثلاثة عينها لهم، بأن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات التي سماها القرآن عورات، ذلك لأنها أوقات للراحة والاستجمام والاسترخاء والتخفف من الثياب الثقيلة التي لا تريح الجسم في النوم وأوقات الراحة، فحرص الإسلام على راحة الإنسان مع ستر عورته، وبالتالي فقد وفر له الراحة الظاهرية التي تتمثل في البدن الخارجي حتى تأخذ الأعضاء قسطها من الراحة لتقوى على العبادة وتأدية الأعمال بنشاط بعد أن أخذت حظها من الاستجمام....

وهيأ له الراحة النفسية، فمنع عنه الأجانب بل وحتى المحارم في أوقاته الخاصة، أن يدخلوا عليه في تلك الأوقات، مما يسبب له الانزعاج وعدم الراحة والاستقرار والسكون، وهذه الأوقات الثلاثة كما حددها القرآن هي:

الأول: من قبل صلاة الفجر وهو وقت يكون فيه الإنسان، في الغالب، مستغرقاً في النوم، والنائم كالميت لا يدري ما يحدث له.

والثاني: بعد أن يضع ثيابه من الظهيرة، وهو وقت يستجم فيه الإنسان من كد العمل الصباحي بعد أن يتناول وجبة الغداء، فيحتاج إلى

---

(١) سنن أبي داود ج ٤ ص ٣٤٨ باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان. كتاب الأدب.

قسط من الراحة، كي يستعيد نشاطه لبقية اليوم، حيث يهب نشطاً إذا توفرت له الراحة هنا.

والوقت الثالث: ما بعد صلاة العشاء، حيث يستعد الإنسان للنوم ويتهيأ له، فلا يكون مستعداً لاستقبال الناس في هذا الوقت، ولا يقولن قائل، لقد أصبح الناس اليوم يسهرون إلى ساعات متأخرة من الليل فلا يضرهم أن يزاروا بعد صلاة العشاء... فإن هؤلاء نجدهم يعانون كثيراً من هذا السهر ولو خيروا لاختاروا النوم المبكر، ثم إننا نجدهم لا يصلون الفجر في وقته ولا يصلونه جماعة وهذا خير كثير حرموا منه بسبب التأخر في النوم، فإذاً، هذه حالات غير عادية، فهي استثناء من القاعدة العامة.

والاستثناء شاذ لا ينطلق حكمه على العامة ولا يمكن أن يكون قاعدة يسير الناس عليها، ولهذا نتجت عند هؤلاء هذه المعاناة التي ذكرناها، من تضييع الوقت وقيامهم لأعمالهم متأخرين، وهذا يعاني منه المدرسون والطلاب الذين يسهرون، فإنهم أما أن لا يأتي أحدهم إلى الدروس الأولى، أو إن أتى فإنه لا يستفيد، لأنه لا يستطيع القدرة على المتابعة، وإن غالب نفسه وصارع النوم، فإنه يفقد القدرة على الاستيعاب والتحصيل والفهم، ولا سيما إذا كان الأستاذ غير حركي فإن الطالب هذا يسلم نفسه للنوم طوال الدرس....

هذا بالإضافة إلى فقدان القدرة على التفكير والتحليل لدى أصحاب الأعمال والموظفين بل وحتى الطلاب أنفسهم، وهذا فيه ما فيه من الخسارة الكبيرة على إنتاج البلد وتدهور اقتصاده.. كل ذلك وغيره يدفع على الذين يدمنون السهر.

يقول الله تعالى في تلك الأوقات الثلاث المذكورة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

هذا ما كان بشأن المماليك والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فهم يستأذنون في هذه الأوقات الثلاثة.

أما إذا بلغ هؤلاء الأطفال الحلم، فعليهم الإذن في كل الأوقات، ولهذا فقد خصهم الله تعالى، بقوله: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

يعني إذا بلغ الأطفال منكم الحلم الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال....[3].

هذه تربية الإسلام للطفل، وهذا هو أدبه للكبار، وهو ما يريد أن يخرجه منه أعداء الإسلام الإباحيون.

وعند الحديث عن الاختلاط نذكر مزيداً من النماذج لهذه الكتب التي يخدعنا بها أعداؤنا. هذه الكتب التي تنتشر وتدرس للتلاميذ وتؤلف لتثقيف - أو على الأصح لتسخيف - الآباء والمدرسين الذين يقومون على أمر الصغار، فالأب في البيت يفعل هذا مع ابنه وابنته، وكذلك يثبته له المدرس في المدرسة،

---

(١) سورة النور: آية ٥٨.

(٢) سورة النور: آية ٥٩.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/٣٠٣.

ومن هذين المأمنين نؤتي، فقد عرفه أعداء الإسلام وأصابوا فيه المحز.

ومن ضمن النكايات التي عملوها لجعل التعليم علمانياً في كل نواحيه حتى يؤدي لهم المهمة التي يرمون إليها هو:

الاختلاط

وقد جعلوا هذا التعليم المختلط، أولاً في المرحلة الابتدائية، لكي يعتاده الطفل، ومن ثمّ يدافع عنه في المراحل المتقدمة.

ولقد أُلّفت لأجل الدعاية لهذا الاختلاط، في هذه المراحل، كتب كلها شبه وضلالات لا يستسيقها الذوق السليم، ويمقتها الدين.

ومن هذه الكتب، الكتاب الذي ذكرته آنفاً «دراسات سيكولوجية»، فقد جاء فيه الحديث عن الاختلاط في المدارس بين البنين والبنات، وكيف أن هذا يجب أن يشجع من قبل المدرسين والآباء، وأنه يجب أن يتضمن جميع الأنشطة والرحلات التي تقام خارج نطاق المدرسة[1]، فنجد نصه يقول: فبدلاً من فصل البنين عن البنات يجب علينا أن نعمل على إشراكهم معاً في الأعمال الممتعة ومواقف اللعب، وأن نحاول مساعدتهم على تكوين مشاعر طبيعية مريحة نحو أفراد الجنس الآخر، وعلى الآباء تشجيع أطفالهم على المساهمة في النشاط المشترك بين البنين والبنات مما تشرف عليه المدرسة والجمعيات الرياضية أو المراكز الاجتماعية التي أقيمت لخدمة هذه الأنشطة المفيدة للجنسين معاً. . . . !!

وهنا يبدأ يعلل هذا أكثر ويبرره، وكأنه يحس في نفسه أن الآباء يتوجسون خيفة منه ويضعون حوله علامات استفهام، لا سيّما وأن هؤلاء

---

(١) انظر ص ٦٢ من السلسلة «دراسات سيكولوجية».

المختلطين الكثير منهم في سن المراهقة والتحفز، ولهذا نجده يطمئن الآباء بقوله:

.... فهذا النشاط المشترك ليس هو «مواعيد غرامية»!!! بل هو فرص للإشتراك بين البنين والبنات في المتع الرياضية وركوب الخيل والدراجات والسياحة المشتركة وغيرها.... ويحاول أن يقلب جميع النواحي التي يرى أنها موضع ريبة ويركز عليها محاولاً درأ المخاوف التي يمكن أن تكون له حجر عثرة أمام الهدف الذي يرمي إليه من الوصول إلى بغيته في إفساد أخلاق التلاميذ والتحلل من دينهم فيركز على هذه الجوانب الحساسة طارقاً لها بقوله: ... وإذا حدث «استلطاف» بين بعض البنين والبنات فينبغي النظر إليه على أنه نوع من الصداقة وليس «غراماً»!! أو «عشقاً»!! والمعاكسات البريئة من نوع «مراد وسهير صديقان حميمان»!! قد تبعث في صداقتهما دفئاً كانا يفتقران إليه....!![1].

ونحن نسأل: يا ترى ما هذا «الاستلطاف» الذي يحصل بين الفتى والفتاة!؟. وما «المعاكسات البريئة» التي يرمي إليها؟! ثم ماالدفء؟ أليس هو التقاء الأجسام؟ ثم ماذا بقي لشرف البنت بعد كل هذا؟ وما المحظور بعد ذلك؟!.

هذا ما يراد لأبناء وبنات الأمة الإسلامية، الإباحية التامة والفساد التام... وكل ما حرم الله وحظرته الشريعة صيانة للإنسانية في الإنسان، بعد أن كرمه الله ورفعه فوق كل ما خلق.

وقد جُعل هذا الاختلاط حتى في المرحلة الثانوية في بعض البلاد، وهذه المرحلة أكثر المراحل خطورة بالنسبة لسن الشباب، مما يحصل معه ما لا تحمد عقباه.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٤ وما بعدها....

أما في المرحلة الجامعية، فقد أبيح هذا التعليم المختلط إباحة تامة، في حرية إباحية مطلقة لا تعرف القيود!! بحجة أن هؤلاء الطلاب أصبحوا ناضجين لا خوف عليهم!! وكأن النضج أصبح شريعة تبيح لهم ذلك.

ومن صور الاختلاط التي قصدوا إليها: أن يجعلوا مدرسات يقمن بالتعليم في مدارس البنين، وغير خاف ما ينتج عن هذا من مفاسد وعدم احترام بين الطالب واستاذه، فكثيراً ما لا يمتلك الطالب عواطفه ولا يقدر على كبح جماح ميوله الغريزية نحو مفاتن هذه المرأة، الأستاذة، التي تظهر امامه كل يوم متعطرة متزينة سافرة متبرجة وهو يتأمل في نبرات صوتها وتقاسيم جسدها، منحنية ومائلة ومعتدلة، ضاحكة ومبتسمة في خفة ونشاط وحيوية، وهي تحاول جذب الطلاب للدرس وإدخال السرور عليهم، فهل يقتصر إعجاب الطالب بأستاذته على النواحي العلمية فقط لا سيما وهي شابة نضرة؟ إن هذا لعمري في القياس بديع!!!.

وإلى وقتنا هذا تكشف الصحف عن وقائع بين التلاميذ ومعلماتهم، وما خفي أعظم مما ظهر وبان ـ ولأسوق أمثلة على ذلك، مما يندى له الجبين ويدمي له القلب:

ساقت إحدى الصحف الحكاية التالية تحت عنوان:

التلميذ والأستاذة، حكاية إعجاب، وقالت:

قررت إدارة مدرسة «كيمبرورت» في منطقة «روثرهام» البريطانية طرد التلميذ «مايك باندي» ١٤ عاماً، مدة ثلاثة أشهر ومنعته من دخول باحة المدرسة، مهما كانت الأسباب والدوافع . . . وجاء هذا القرار بإجماع لجنة الأساتذة التي وصفت «مايك» بالتلميذ الوقح، وكان «مايك» قد نفذ جريمته في الأسبوع الماضي عندما فشل في كبت كل إعجابه بإحدى المعلمات، فصاح بها قائلاً أثناء ساعة الدرس:

أعـطني قبلة!! وفي المرة الثانيـة قفـز «مـايك» عن مقعـدة ليتسلم القبلة!![1].

وينقل الدكتور عبدالله علوان عن جريدة الأحد اللبنانية ما يلي[2]: الفضائح الجنسية في الجامعات الأمريكية والكليات تتجدد وتزداد كل عام بين الطلاب والطالبات... وهجـوم ليلي من الـطلاب على غـرف النوم للطالبات وسرقة ثيابهن الداخلية... ثم تستطرد الجـريدة قـائلة: ودلت الإحصائيات في العام الماضي على أن (١٢٠) ألف أنجبتهم فتيات بصورة غير شرعية لا تزيد أعمارهن على العشرين، وأن كثيرات منهن من طالبات الجامعات والكليات.... وأن الطالبة لا تفكر إلا بعواطفها، والوسائـل التي تتجاوب مع هذه العواطف، إن أكثر من ستين بالمائة من الطالبات سقطن في الامتحانات، وتعود أسباب الفشل إلى أنهن يفكرن في الجنس أكثر من دروسهن وحتى مستقبلهن. وأن عشرة بالمائة منهن فقط لا زلن محافظات....

ومثل هذا في المفسدة، أن يقوم الرجال ـ ولا سيما الشباب منهم ـ بالتدريس في مدارس البنات، وهذا النوع الأخير نجده ينتشر بكـثرة في البلاد الإسلامية بفضل دخول التعليم العلماني الغربي.

وإذا قلت لهم بأن هذا الإختلاط يفسد الطلاب والطالبات باعتبار أن كلاً منهم تجري عليه السنن الكونية في البشر، وهي الميل الغريزي نحو الجنس الآخر والانجذاب نحوه، وفي مثل هـذا الاختلاط يصعب ضبط النفس، إذا قلت لهم ذلك، قالوا لك: بأن هذا الاختلاط يؤدي إلى عكس ما تقول: ويعللون ذلك بأن اللقاء يصبح شيئاً عادياً بيـن الجنسين!!.

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد٢٣٦ جمادي الأول ١٣٩٩ هـ، لندن.
(٢) العدد ١٥٠.

والرد على دعواهم هذه لا يتعدى كلمات قليلات، وهي، أن هذا التشبع الذي يحصل من جراء الاختلاط الذي ذكرتموه لا يعدو أمرين هما:

أولاً: إما أن تكون مداومة الاختلاط قد سببت لهذا النوع بروداً عاطفياً للفريقين المختلطين، وهذا أدى إلى الإصابة بالبرود الجنسي!! وبالتالي يمتنع الرجل الذي من هذا النوع من أي امرأة، حتى ولو كانت امرأته، وفي هذا ضرر جد خطير، لأنه يقلل الثروة البشرية، وبالتالي يهلك الحرث والنسل، مما يصيب الأمة بالشلل الإجتماعي وقلة الأيدي العاملة.....

ثانياً: أن يكون هذا المختلط قد أروى وأخذ كفايته من هؤلاء اللائي يختلط بهن!! وهذا ما يخشى منه بعينه وهو المفسدة التي من أجلها جاء الحظر.....

وأما أن يسلم الاختلاط من غير أن يمر بأحد هذين الطريقين، فلا عاقل يصدق ذلك، ولا تساعده عليه طبيعة الإنسان البشرية وفطرته الجبلية ولا تركيبه (البيولوجي) فإن الميل نحو الجنس الآخر فطرة فطر الله الحيوان عليها، ولكنه تعالى: جعلها لبني أدم بطرق مهذبة راقية ترتفع به عن درجة الحيوان، فإن انقلب ومارسها على صورة الحيوان، فقد انحط إلى درجة أسفل منه، لأن الحيوان لم ينزل عن درجته التي خلقه الله عليها، ولكن الإنسان الذي يفعل ذلك، قد نزل عن درجته، فصار بهذا النزول أضل من الحيوان، كما قال تعالى، في مثل هؤلاء الذين ينسلخون عن انسانيتهم ولا يستفيدون مما وهبهم الله ومنحهم من العقول المفكرة والبصيرة المدركة ولا يستفيدون من تلك الجوانب التي خصهم الله بها، فلما عطلوها وأفرغوها من محتواها الحقيقي، أصبحت عاطلة وسائبة بمنزلة العدم، لأن الشيء إذا سلب منه النفع ولم يقم بالمهمة التي انيطت به، فقد أصبح هو والعدم المحض سواء بسواء، ولهذا ذكر الله أن لهم حواساً على صورة تلك

الحواس ذات الفائدة ولكنها هيكل وصورة هامدة لا حراك فيها ولا فائدة ترجى من وجودها:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

ولا أراني في كبير حاجة إلى توضيح المفاسد الناجمة عن الاختلاط، أكثر من تلك الإشارات التي طويتها على عجل، فتوضيح الواضح غموض، ولا يخفى على ذي بصر وبصيرة من أنه يجر على اختلاط الأنساب وتفشي الأمراض الخبيثة المعدية والتي تنتقل عادة عن طريق التناسل والشذوذ الجنسي وعن طريق الفاحشة كلها، ولا غرابة أن ظهر أخطر مرض يواجه العالم اليوم عن هذا الطريق وفي البلدان التي تبيح الاختلاط بدون حدود ولا قيود وتبيح الزنا واللواط وتبيح الاختلاط في مدارسها وجامعاتها.... فقد ظهر هذا الداء العضال الذي لم يوجد له عقار مضاد حتى يومنا هذا وأصبح «البعبع» الذي يخيف العالم كله، ظهر هذا أول ما ظهر ونما في تلك البلدان، مرض فقد المناعة المكتسبة «AIDS».

وكذلك تظهر في المجتمع المبيح للاختلاط الأمراض الوراثية التناسلية، مثل مرض الزهري والسل وغيرها ومثل مرض «الإيدز» الذي ذكرناه آنفاً.

إن هؤلاء القوم صموا آذانهم عن الحق وعميت عنه أبصارهم ولجّوا في طغيان يعمهون ونسوا وتناسوا آلاء الله، وبطروا نعمه، ولهذا فقد فتح الله عليهم المصائب من كل مكان ومن حيث لم يحتسبوا، فانهمر عليهم

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٩.

سيل الآفات والأمراض الفتاكة، وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1]، ويصدق فيهم قول الرسول ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. . . الحديث»[2].

فهؤلاء أظهروا الفاحشة وأعلنوا بها وأباحوها قانوناً وأجازتها برلماناتهم وباركها عقلاؤهم بعد أن بدأها سفهاؤهم فأردتهم حيارى لا يلوون على شيء.

ففي مثل هذا المجتمع الذي تشيع فيه تلك الأوبئة ينشل المجتمع وتقل الطاقة البشرية، لا سيما بعد ظهور مرض «فقد المناعة» فيتعطل الإنتاج ويصير المجتمع خاملاً رخواً لا يقوى على مجابهة أعباء الحياة.

فمجتمع فسدت أخلاقه وشاعت فيه الفاحشة واختلط فيه الرجال بالنساء، حيث تنتهك الأعراض وتباح الحرمات وتتفكك الأسر ويختلط الحابل بالنابل.

مجتمع كهذا جدير بأن لا ينتصر على عدو يتربص به الدوائر.

وحري بالمسلمين اليوم أن يعودوا إلى ماضيهم الزاهر، وأن توضع للتلاميذ مناهج التربية الإسلامية القويمة التي تشتمل على سيرة الرسول ﷺ وصحابته، الأبرار حتى يعرف هذا الجيل كيف كان أسلافه قوماً لا يخافون في الله لومة لائم.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٤٤.

(٢) سنن ابن ماجه، باب العقوبات، ٢/١٣٣٢، وقال في الزوائد هذا حديث صالح للعمل به.

ولكن الشيء المذري حقاً أن نجد في هذه الأيام من ينادون مرة ثانية بالنظر إلى إعادة المناهج الدراسية التي حصل لها وطرأ عليها شيء يسير من التحسن فيما يتعلق بالتربية الإسلامية، في بعض البلاد الإسلامية بتأثير الصحوة الإسلامية التي تنتظم الشباب المسلم، وإن كان هذا، حتى الآن، لا يساوي التعليم العلماني كماً وكيفاً، ولكننا مع ذلك نجد من ينادي بالرجوع إلى المناهج العلمانية الخالصة التي كانت أيام الاستعمار. والتي تربى عليها أمثال هؤلاء المنادون، ذلك لأنه: تبين ـ لهم ـ أن تدريس التاريخ الإسلامي للنشىء في المدارس بحالته الموجودة والتي تم تطويرها من الخمس عشرة سنة ما زال يربط الدين بالسياسة في لا شعور كثير من التلاميذ منذ الصغر، مما يؤدي إلى ظهور معتنقي الأفكار الإسلامية ـ ولهذا يجب ـ إعادة النظر في مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدين عامة في المدارس والعمل على تغيير هذه المناهج لربط الدين بالأوضاع الإجتماعية والخلقية، وليس مع السياسة، مع إبراز مفاسد الخلافة وخاصة زمن العثمانيين، وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة وأقصائها عن السياسة...[1].

ولو تساءلنا لماذا يركزون على عدم تدريس التاريخ الإسلامي للطلاب؟ ولماذا التاريخ بالذات دون سائر غيره من العلوم؟

والسبب الواضح، وهو أن تاريخ هذه الأمة الإسلامية ولا سيّما في العصور الأولى، كان يمثّل الإسلام الصحيح الذي يعكس لمسلم اليوم الحياة التي كان يعيشها سلفهم وموقع الإسلام من تلك الحياة، ويجعلهم يقفون على سياسة الدولة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ ومن بعده وموقع هذه العقيدة السلفية الصافية التي لم تخالطها فلسفات ولا تلفيقات آراء ولا تأويلات تعطيل ولا غبش تضليل ولا انحراف تدجيل...

---

(١) انظر صحيفة المدينة المنورة العدد ٤٥٧٠، ١٣٩٩ هـ، عن صحيفة العرب التي تصدر في لندن.

يعرفون كيف كان المسلم يعتز بدينه حتى إنه لا يقدم على أمر حتى يعرف حكم الله فيه، ثم يمضيه بعد ذلك.

ويعرفون كيف كان سلفهم، يسوس الدنيا من خلال الدين وليس من خارجه، ويضعون منهجهم في الحياة كلها، وخططهم وبرامجهم ومعاهداتهم وعهودهم الدولية. ويصادقون ويحاربون ويسالمون... من منطلق المنهج الرباني وعلى أسسه يسيرون... إلخ.

ولهذا فقد تنبّه أعداء الإسلام لصحوة الشباب المسلم المثقف في المدارس والجامعات، هذا الشباب الذي أخذ على نفسه محاربة هذه التيارات والأفكار والمعتقدات المستوردة الأجنبية على الإسلام، التي ينادي بها دعاة العلمانية والإلحاد ودعاة الإباحية والاختلاط ودعاة عزل الدين عن حياة الناس....

تنبّه أعداء الإسلام لهذه الصحوة الإسلامية فصاروا يستصرخوا عملاءهم وزبانيتهم من الذين تربّوا على أيدي المستشرقين والمستعمرين، مما أسموه بمكافحة التيارات الإسلامية «المتطرفة»!! وهو تعبير خبيث ماكر يرمون من ورائه إلى تشويه وجه النهضة الإسلامية وسط الشباب، على غرار ما فعلوه بالنسبة لتشويه الجهاد الإسلامي، بأنه حرب إبادة لغير المسلمين، ولكنهم يكيدون كيداً والله يكيد كيداً، وستكون أعمالهم ضد الإسلام والمسلمين حسرات عليهم ثم ينقلبون خاسئين...

عزل التعليم الإسلامي عن حياة المجتمع

كان ذلك ملخصاً لما أسموه بالتعليم المدني أو غير الإسلامي، فكما عزل هو عن الدين، فقد عزل التعليم الإسلامي عن الحياة الاجتماعية كلها، لكي لا يتفاعل خريجوه مع المجتمع فيؤثرون فيه ببث القيم الإسلامية الأصلية، وإن نجح هذا العزل نجاحاً مؤقتاً، فإنه لم ينجح إلى النهاية، مما جعلهم يفكرون في طريقة أخرى، وهي أن يجعلوه يقترب من التعليم غير الإسلامي «العلماني» ما أمكن ذلك، وهو ما أسموه «بالتطوير»!! الذي سأتحدث عنه عما قريب إن شاء الله.

أما فكرة العزل فقد تمثّلت في محاولة انهزام الروح المعنوية لدى الطلاب في المعاهد الإسلامية وكذلك الأساتذة.

فكان طالب المعهد الإسلامي موضع سخرية أمام زملائه في الجانب المقابل، حيث كان خريجو المعاهد الإسلامية قل أن يجدوا لهم عملاً في القطاعات الحكومية وأجهزة الدولة، اللهم إلّا أولئك الذين ينصّبون للفتيا وما شاكلها، وحتى الذين يتم تشغيلهم في أجهزة الدولة الرسمية، فإن أجورهم وعلاواتهم وترقياتهم تكون أقل بكثير من رصفائهم من خريجي المدارس العلمانية.

وقد تسبّبت هذه الحرب النفسية بالفعل في تحطيم نفسية كثير من طلاب المعاهد الإسلامية، الشيء الذي جعل ضعاف النفوس وواهني الإيمان منهم، يظهر بالمظهر الذي يبعد به عن الدين ويدنيه من رفاقه العلمانيين، حتى يقال: إنه «متحرر وتقدمي»!!.

وثَمَّ شيء آخر كان أعداء الإسلام يرمون إليه من إبعاد ذوي الثقافة الإسلامية، ألَا وهو أنْ يمكنوا لأولئك العلمانيين من التمركز في الأماكن الحساسة التي تتصل بحياة الناس اتصالاً مباشراً حتى يشعر الفرد بأنهم هم الذين يقومون بخدمته ويرعون مصالحه، وهم وحدهم الأكفاء لإدارة الأعمال الحكومية وتسيير دفة النظام بخلاف أولئك الإسلاميين الذين لا يعرفون إلّا الفتيا في مسائل الأحوال الشخصية!!... حتى إن الواحد منهم مهما كان قديماً في العمل، زمناً وممارسة فإنه يُضَنُّ عليه بأن يكون مدير مدرسة أو مدير جامعة أو مدير مؤسسة حكومية بحجة أنه ليس خبيراً في علم الإدارة وفي هذا لم يعط «نوط» الجدارة ولا يستطيع أن يحتل فيه مكان الصدارة!!.

وفي نفس الوقت نجد ذوي الثقافة الغربية قد قبضوا على كل البرامج سواء في الجهاز التنفيذي أو في الجهاز التشريعي، الذي يحرّر القوانين التي تسيّر النظام في البلاد.

وهم الذين بيدهم وضع المناهج التعليمية، وهم الذين يعملون في قيادات الجيش والشرطة، وهم الذين بيدهم إدارات المؤسسات الحكومية الكبرى والبنوك والشركات وهم القضاة والمحامون....

ومن هذه النافذة وعن طريق هذا المخطط المرسوم، فقد انزوى الإسلاميون وتقوقعوا...

ولذلك فقد سبّبت هذه الانشطارية في التعليم، بجعل جناحين له، أحدهما متصل بحياة الناس، والآخر شبه ميت ومنطو على نفسه، سبّبت انتشار الفكر المناوىء للدين وعلمنة الحياة، حيث أبعد الدين عن مسرح الحياة، وإبعاد الدين عن الحياة، وإحلال أي نظام آخر محله، كيفما كان ذلك النظام، يعتبر هدماً لكيان الأمة ومسخاً لعقيدتها وتشويهاً لوجهها الحقيقي الأصيل، وبالتالي تبديل مفاهيم المسلمين نحو دينهم وما يتطلبه

منهم وإدخال مفاهيم جديدة لم يعرفها سلف هذه الأمة مثل ما نسمعه اليوم من نغمات نشاز تقول بإبعاد الدين عن مفهوم السياسة أو كما سمّوه مؤخراً «عدم تسييس الدين أو تدين السياسة» وهو قالب آخر لقول النصارى في أناجيلهم: «دع ما لله، وما لقيصر لقيصر»!!!.

ومع كل تلك الحملات التي شنّت لتدمير المعاهد الإسلامية ووأد الثقافة الإسلامية، وقتلها في نفوس أصحابها، مع ذلك كله نجد أعداء الإسلام يضيقون ذرعاً بوجود هذه المعاهد التي ما زالت تعنى بدراسة الدين عامة وتحفيظ القرآن الكريم خاصة، وما دامت هذه المعاهد قائمة ويؤمها طلاب مسلمون، فإنه لا يقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ثائرة، ذلك لأن هذه المعاهد تبث القيم الإسلامية الصافية في نفوس الطلاب والشباب، ولا بدّ أنه سيأتي يوم ترتفع فيه راية الإسلام عالية خفاقة... ويكون هؤلاء هم باعثوها...

ولهذا نجد «جب» يمتعض أسى من وجود هذه المعاهد بالرغم من أن الوحدة الإسلامية والترابط الإسلامي والحماس للإسلام قد بدأ يضمحل - على حد تعبيره - بالرغم من ذلك فإن وجود هذه المعاهد يزعجه فيقول: ومع أن الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية[1] ومع أن الثقافات القومية قد أخذت مكانها في المدارس، ومع أن الفوارق الاجتماعية قد أصبحت أكثر وضوحاً[2] ومع أن الثقافة الدينية التقليدية قد أصبحت محصورة في عدد قليل محدود، مع ذلك كله فإن المعاهد الدينية

(١) يعني بذلك انتهاء دولة الخلافة الإسلامية التي كانت تربط المسلمين تحت ظل الخلافة حيث كانت تدين لها، بطريقة أو بأخرى الأقاليم الإسلامية وان تفاوت هذا الولاء. ولكن لم ينقطع شعور المسلمين بأن لهم خليفة ودولة.. هذا بالرغم مما اعترى القائمين عليها من انفلات في كثير من النواحي الإسلامية التي تؤخذ عليهم...

(٢) يقول ذلك لعلمه أنه لم يكن في الإسلام فوارق ولا طبقات... ولهذا برزت هذه الفوارق عندما انحسر حكم الإسلام في شؤون الناس...

نفسها لا تزال قائمة، ولا يزال حفّاظ القرآن ودارسوه لم ينقص عددهم، ولم يضعف سحر آيات القرآن ولا تأثيرها على تفكير المسلمين وربما كان تقديس شخصية محمد[1] وما يثيره ذكره من حماس في سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم، من أهم ملامح النهضة الإسلامية الحديثة[2].

«جب» وأمثاله من أعداء الإسلام جرّدوا أنفسهم لتتبع المسلمين في كل أحوالهم وأطوارهم بدراسات عميقة وتتبع لا يعرف الكلل ولا الفتور.. كل ذلك جرياً وراء خلخلة الترابط الإسلامي وإضعاف الحماس للإسلام وتهميش التمسك به، فهو مع كل الفوارق التي يلاحظها ظهرت عند المسلمين في الوقت الحاضر والتي لم تكن في أسلافهم من قبل، والتي يستبشر بها، مثل تخلخل الوحدة الإسلامية وزوال الخلافة، وظهور القوميات وترجمتها في شكل مناهج في المدارس التعليمية لتلقن للطلاب، ومثل انحسار الثقافة الإسلامية الأصيلة التي رمز لها بالثقافة «التقليدية» والتي يرى أن المعاهد الإسلامية تبثها في أوساط المسلمين.. ثم يمتعض وينزعج من تدريس القرآن ويتمنى زواله، لأن تأثيره في المسلمين لا يدانيه أي تأثير آخر...

وعموماً هو يود لو أن كل ما يمكن أن يقوي شخصية المسلم ويربطه بدينه وتراثه الإسلامي ولا يجعله ذيلاً لهم - يود محو كل ذلك من مناهج التعليم وإحلال محله كل ما جاء عنهم من الغرب، وهو ما عملوا على إدخاله جاهدين، حيث إنهم ما زالوا يعملون عن طريق عملائهم وأذيالهم ممن رضعوا من ثديهم، على زحزحة هذه المعاهد الإسلامية، وهو ما فعلوه

(١) إن احترام المسلم للنبي ﷺ، باعتباره نبياً رسولاً بشراً، ولم يكن هذا الاحترام يصل إلى درجة التقديس الذي يكون من قبيل العبادة أبداً، فالمسلم لا يقدس تقديس عبادة إلا الله.

(٢) انظر كتابه «Whither Islam. p 350»

في بلد إسلامية في عام ١٣٩٠ هـ من تحويل المعاهد العلمية الإسلامية إلى مدارس علمانية بحجة عدم الثنائية في التعليم[١].

ولما رأوا أن خطة عزل التعليم الديني وإقصائه عن الحياة ربما لا يضمن استمرارها إلى أمد طويل، ولا سيّما أن الصحوة الإسلامية بدأت تأخذ طريقها إلى المجتمع المسلم بفضل اتصال أبنائهم في المعاهد الإسلامية بهم ولو في نطاق ضيق محدود، ولذلك فقد عمدوا إلى طريقة أخرى لعلها تؤتي ثمارها المرجوة منها. وهي ما أطلقوا عليه:

---

(١) البلد هي «جمهورية السودان» حيث كان في الحكومة أنئذ وزراء شيوعيون.

تطويـر المعاهـد الدينيـة

وكأنهم يوحون للمجتمع بأن الدين جامد «ورجعي» يجب تطويره!!
وغير خاف ما في هذه التسمية من خبث، والذي يؤسف له حقاً، أن هذه الفكرة الخبيثة منتشرة بين المسلمين، ولا سيّما أولئك الذين تلقّوا تعليمهم في المدارس والجامعات الغربية عن طريق البعثات حيث عريت أذهانهم عن الثقافة الإسلامية وكسيت بالثقافة الغربية...

فالإسلام هو الذي حرّر العقل البشري من الخرافات وأنقذه من الضلالات، وهو دين العلم والعقل والرقي... لا كما ينعتونه «بالرجعية التي بمعنى التخلف» كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلّا كذباً.

ولّما كان الأزهر هو شريان الحياة بالنسبة لكل المعاهد الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي، فقد حاولوا أن يوجهوا ضرباتهم إليه، فأخذوا يثيرون حوله تلك المفاهيم السقيمة غير المستقيمة التي يزعمون أنها «تطوير» ذلك لأنهم، على حدّ زعمهم، وجدوا: التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة، يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه الخطوة جليلة الخطر، فليس من اليسير أن تتصور أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة...!!.

وهنا يستدرك إذا لم يمكن إصلاح الأزهر ـ على حدّ تعبيره ـ فإنه يجب أن يلتفت إلى التعليم العلماني وإنمائه حتى ينافس الأزهر أو يقضي عليه. . . فيستمر مستدركاً:

. . . ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسّر تحقيقه، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم غير الديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح. . .

ويطفق محلّلاً النتيجة قائلاً:

. . . وعند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين: فإما أن يتطور، وإما أن يموت ويختفي!! على أن الخطة الأولى التي تقوم على إصلاح الأزهر من داخله لها نتيجة عظيمة الفائدة والأهمية، وإن تكن نتيجة غير مباشرة، وهي أنها تؤدي بالتدرج إلى اختفاء التعصب الديني الذي أخّر تقدم الأزهر زمناً طويلاً!!. أما الخطة الثانية ـ وهي إصلاح التعليم الديني ـ فإن تأثيرها المباشر أقوى في إيجاد ما نحن في أشد الحاجة إليه من إقامة العلائق الإنجليزية المصرية!!! على أساليب من التفاهم والتعاطف المتبادل[1].

ذلك التحليل وتلك المتابعة والملاحقة لأكبر المعاهد الإسلامية في العالم الإسلامي، يدل دلالة لا يدانيها الشك في حرص هؤلاء الخبثاء على محوّ الهوية الإسلامية واقتلاع أصولها، فإن الكلام السابق لا يحتاج مني لتعليق ولا تعقيب فهو ناطق بلسان المقال وواضح بدلالة الحال ولا يخفى على ذي لب وبال.

---

(١) انظر، كتاب: مصر في عهد اللورد كرومر، ١/١٥٧، ١٩٣٣ م.

الحملة على التعليم الإسلامي من قبل الوطنيين

ولم تقف الحملة على التعليم الديني وإيجاب «تطويره» أو بعبارة أدق «سلخه» من صبغته الدينية وتعريته من لباسه الإسلامي حتى يغدو رصيف التعليم العلماني الذي نبذ الدين وراءه ظهرياً، لم تقف هذه الحملة على غير المسلمين فقط، بل حملها من بعدهم أو إلى جانبهم تلاميذ لهم مسلمون في الأصل من بني جلدة المسلمين ويتحدّثون بلسانهم ويتسمون بأسمائهم...

فهذا هو الدكتور طه حسين تلميذ «كازانوفا» المخلص يتعرّض للأزهر ووجوب إصلاحه، أسوة بأساتذته المستشرقين النصارى، كي يتخلّص من عقلية القرون الوسطى!! كما يروق له أن يعبّر دائماً.

والقرون الوسطى تعني في التاريخ الأوروبي العهود المظلمة، ظلام التخلّف في كل مجالاته، التخلّف المادي والتخلّف العلمي والتخلّف الحضاري والتخلّف الثقافي بمعناه الواسع حيث كانوا يحاربون العلم من كنائسهم ويجعل القساوسة من أنفسهم «مناديب» عن الله، وبالتالي احتكروا العلم وتفسير الظواهر الكونية وجعلوها من أسرارهم الغيبية الخاصة بهم!![1]، وتلك الحقبة من التاريخ التي كان الغرب متخلّفاً فيها والتي تسمّى بالعصور الوسطى، هي كانت عصر الإسلام الزاهر، عصر البعثة

---

(١) للتوسع انظر كتابنا: نشأة العلمانية، فصل العوامل التي أدت إلى قيام العلمانية ص ٢٥ وما بعدها....

المحمدية التي أخرج الله الناس بها من تلك الجهالات الجهلاء والنكارات الشنعاء.

فهم عندما يعبّرون عن الإسلام بأنه دين العصور الوسطى، أو عندما يصفون العقلية الإسلامية بأنها عقلية القرون الوسطى، فإنما يرمون الإسلام بالتخلّف والجهالة.

ولهذا ترى أذيالهم وفضلات ثقافاتهم من أبناء المسلمين يقولون لك، تريد أن تردنا إلى إسلام العصور الوسطى؟!! وهم في أذهانهم عصور أوروبا لأنهم لا يعرفون كيف كان الإسلام في تلك العصور لأن أسيادهم لقنوهم ذلك.

وهذا المصطلح هو الذي حرص عليه ربيبهم طه حسين عند كلامه على الأزهر، ذاكراً طلابه بالتخلّف واصفاً لهم بأنهم يعيشون «بأثقال القرون الوسطى» وعنده أن الأزهر: بحكم طبيعته وبيئته ومحافظة القائمين عليه وخضوعهم بحكم هذه المحافظة لكثير من أثقال القرون الوسطى، وكثير من أوضاعها يصوغ التلاميذ والطلاب صياغة خاصة مخالفة للصيغة التي ينتجها التعليم المدني، بحيث يعرض الأمر من الأمور، والواقعة من الواقعات، فإذا الأزهر يتصور على نحو، وإذا الشاب المدني يتصور على نحو آخر...[1].

فهو يريد من الشاب الأزهري، أن يفكر بتفكير الشاب الذي يعبّر عنه، بالمدني، أو العلماني، وأن يتصور ما يتصوره هذا العلماني، وأن يصدر حكمه على الأشياء كما يصدره العلماني!!.

فهو لا يريد من هذا الشاب المسلم أن يكون له تفكير خاص، وأن تأتي أحكامه على مجريات الأحداث من خلال دراسته الإسلامية، ولا

---

(١) انظر كتابه مستقبل الثقافة في مصر، الفقرة ١٣ ص ٨٥.

تنبع هذه الأحكام من المنبع الإسلامي، ولا يحكم على الأشياء من وجهة النظر الإسلامية، ولا ينظر من خلال رؤية إسلامية، لأن هذه في نظره من أفكار القرون الوسطى المتخلّفة!! وكأنه يريد أن يقول: إن الإسلام والتفكير الإسلامي، غير صالحين لهذا العصر، مثل ما شنّ هجوماً على القرآن ووازن بينه وبين الشعر الجاهلي، بل وفضل الأخير عليه، وشكك وطعن في القرآن عن طريق اختلاف القراءات...[١].

وطعن وشكك في بناء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، للكعبة ورفعهما لقواعدها، وقال: إن قريشاً قبلت هذه «الأسطورة» التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم، كما قبلت روما قبل ذلك لأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بأينياس ابن بريام صاحب طروادة...[٢].

يقول طه حسين: إن هذه القصة مختلقة وأسطورة ولا صحة لها، ويشبهها بأساطير اليونان، يقول ذلك طه حسين والقرآن يذكر بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة، فهو إذن يقول: إن ما في القرآن أساطير!!.

يقول الله تعالى عن بناء الكعبة بواسطة إسماعيل وإبراهيم: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣].

بل ونجد طه حسين يزعم باطلاً، أن إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، لا وجود لهما، وهما من قبيل الأساطير، ويزعم أن ورودهما

---

(١) للوقوف على ذلك وغيره من المفتريات انظر كتابه: في الشعر الجاهلي.
(٢) في الشعر الجاهلي لطه حسين ص ٢٨.
(٣) سورة البقرة: آية ١٢٧.

وذكرهما في القرآن لا يكفي دليلاً على وجودهما في التاريخ ويقارن بين ذكر القرآن لهما، عليهما السلام، وذكر التوراة لهما. . فيقول:

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة. . .[1].

فهو يعرف أن الله مدح إبراهيم، عليه السلام، في القرآن في مواضع عديدة، بل وأمر النبي ﷺ بأن يتبع ملته، ووصفه بأنه وحده أمة، كما وصفه بالنسك والطاعة والعبادة والإخلاص للّه تعالى، ونفى عنه الشرك. . . نجد ذلك كله وغيره كثيراً جداً في القرآن الكريم عن إبراهيم خليل الرحمن، وهو الذي اتخذه الله خليلاً ونجاه من النار وجعلها برداً وسلاماً عليه.

انظر وتمعّن وتفحّص ودقّق أيها القارىء البصير في هذه الآيات الواردة في إبراهيم وانظر إلى مكانة إبراهيم عند الله تعالى ثم تفكر بعد ذلك ماذا يريد أعداء الإسلام هؤلاء بطعنهم في إبراهيم ونفي نسبة الملة المحمدية إليه. . .؟ ألا تراهم يريدون كيداً للإسلام؟ تعال معي نفتح صفحة إبراهيم، عليه السلام، في القرآن لنقرأ فيها تاريخ هذا النبي الأوّاه الحليم: يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

(١) المرجع السابق: آية ٢٦.

(٢) سورة النحل: آيات ١٢٠ ـ ١٢٣.

وعن الجزء الأخير أو المقطع الأخير الذي ينكر فيه أيضاً هجرة إسماعيل، عليه السلام، وإسكان والده له بمكة، عن ذلك يقول الله، تعالى، حاكياً عن إبراهيم إسكان ذريته بمكة التي كانت قاحلة لا ساكن فيها لشدة جدبها:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[1].

وطه حسين الذي أشرب حب المستشرقين ورضع من لبنهم، لا يرعوي حتى في الطعن في نسب النبي ﷺ الذي وردت به السنة الصحيحة... يقول في ذلك:

فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي[2] يجب أن يكون صفوة بني هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بني قصي، وأن تكون قصي صفوة قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب، والعرب صفوة الإنسانية[3].

فهو بالرغم من أن ذلك ورد بالسنّة الصحيحة الصريحة، ولكن طه حسين أدخل فيه وأخرج منه من عنده، فليس في الحديث الثابت عن النبي، ﷺ، أن العرب صفوة الإنسانية، وإن كان ذلك كذلك فما المانع منه عقلاً وشرعاً وهم منهم نبي الهدى وسيد ولد آدم؟.

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.
(٢) صلى الله عليه وسلم.
(٣) في الشعر الجاهلي ص: ٧٢ وما يليها....

ففي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع، يقول: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول:

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم...»[1].

ولقد وضحت فكرة طه حسين المناهضة للإسلام في هذا الكتاب الذي نقلت منه تلك النصوص، وهو كتابه: «في الشعر الجاهلي».

وإذا عدنا لكلامه عن التعليم الإسلامي، نجده يستاء من الصفة الاستقلالية للأزهر ويصفه بأنه دولة داخل دولة، ليثير حفيظة الحاكم عليه، ويحث على حل هيئة كبار العلماء بالأزهر لكي لا يكون الأزهر دولة داخل الدولة، وسلطاناً خاصاً يستطيع أن يطاول السلطان العام ويناوئه، كما هي الحال الآن إذا بقيت هيئة كبار العلماء وإذا أتيح للأزهر بالفعل كما أتاحت له قوانينه من تخريج المعلمين في مدارس الدولة على اختلافها...!!!

فهو يود أن لا يكون خريجو الأزهر معلمين في مدارس الدولة حتى لا يلقنوا الطلاب أفكارهم التي وصفها بأنها قديمة لا تساير العصر، وهو ما دأب عليه أعداء الإسلام بواسطة الاستعمار من عزل ذوي الثقافة الإسلامية والعلماء من تولية المناصب في الدولة، كما ذكرت سابقاً.

ووصف الأزهر والتعليم الديني، بالقديم والعهد القديم والتفكير القديم... كلها عبارات تتكرر في كلامه على الأزهر، وهي عبارات مستقاة ومستوحاة من المستشرقين، الذين دأبوا على وصف الإسلام بمثل هذه الأوصاف.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل، المجلد الثامن ١٥/٣٦.

ونراه هنا يقسم العهود إلى عهدين:

عهد قديم بال يتمثّل في الأزهر المحافظ!!

وعهد جديد يتمثّل في المدارس الحديثة، وبطبيعة الحال فإن الناس ينفرون مما يقال عنه أنه قديم، ويتطلعون إلى كل جديد.

فوصف الدين الإسلامي بهذا الوصف يجعل الناس يشمئزون منه ولا سيّما ضعاف النفوس وضعاف الإيمان كما يفعل بعض الشباب المسلم الذي سادت فيه الروح «الانهزامية» مما جعلهم يميلون إلى الظهور بالمظهر غير الديني، لكثرة وصم أعداء الإسلام لهم بالتأخر «والرجعية»، وكانت قد سادت هذه الظاهرة قبيل عصر الصحوة الإسلامية أي منذ حوالي خمسين عاماً مضت كان الاستعمار يشدّد قبضته على البلاد الإسلامية.

ولهذا نجد طه حسين يصف الأزهر قائلاً:

إن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة تمثّل العهد القديم والتفكير القديم أكثر ما تمثّل العهد الحديث والتفكير الحديث. . .[1]، وهو دائماً ينسج على هذا «المنوال» ويحرّك هذا العصب الحسّاس، بطرق الكلمات المثيرة، مثل: القديم، التفكير القديم، العقلية القديمة، العقل الحديث، الجديد. . . كما نجده يركّز على «تطوير» الأزهر ويصف هذا التطوير، الذي يريده بالدقة حيث يشمل كل النواحي ويغطي كل الجوانب والأنشطة التي يقوم بها الأزهر بما في ذلك المناهج الإسلامية، وهي الخطر الداهم في زعمه، ذات الطابع الإسلامي تحقيقاً لرغبة أولئك الذين يقف الإسلام أمامهم حجر عثرة من الدخول إلى قلوب المسلمين وتخريبها.

ولذلك في نظر هؤلاء، لا بدّ من تطوير دقيق وطويل قبل أن يصل الأزهر إلى الملائمة بين تفكيره وبين التفكير الحديث.

---

(١) المرجع السابق الفقرة ١٣ ص ٩٨.

والنتيجة الطبيعية لهذا، أننا إذا تركنا الصبية والأحداث للتعليم الأزهري الخالص، ولم نشملهم بعناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة، عرضناهم لأن يصاغوا صيغة قديمة، ويكوّنوا تكويناً قديماً وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة، التي لا بدّ لهم من الاتصال بها والاشتراك فيها، وعرضناهم لطائفة غير قليلة من المصاعب التي تقوم في سبيلهم حين يرشدون وحين ينهضون بأعباء الحياة العملية...[1].

وهو هنا كأنه يتّهم الإسلام بأنه ليس دين عمل وأن المتدين غير مؤهل للقيام بأعباء الحياة العملية ويتجاهل ما في الإسلام من الحث على العمل، بل جعل القول بدون عمل مقتاً كبيراً وإثماً مبيناً... يجد المتصفح للقرآن والسنّة الكثير من ذلك، وهو عمل الصحابة ومن بعدهم، يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ... ﴾[3].

ويقول الرسول، ﷺ:

«لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[4] وغير ذلك كثير مما فصّلناه في مكان آخر[5].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة الحشر: آية ٢ - ٣.

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٥.

(٤) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة ج ٣ ص ٣٣٥.

(٥) انظر كتابنا: منهاج الحياة، فصل الإسلام يحث على العمل.

ويعلّل بتعليل آخر لمحو الصبغة الإسلامية عن الأزهر وتقليل نفوذه وتحجيمه، حيث يرى أن التفكير الأزهري القديم يكون حاجزاً بين التلاميذ وبين «القومية» الإقليمية الضيقة التي تقوم على الحدود التي وضعها المستعمر لكل دولة إسلامية لتلتصق بالتراب الواحد وترتكز على عنصر الجنس واللون والأقليم، وهو نظام يخالف المفهوم الإسلامي الشامل الذي يجعل المسلمين جسداً واحداً، كل مسلم يكون عضواً من أعضائه أو كفروع شجرة يجمعها جذع واحد تشرب من ماء واحد هو الإسلام تتغذى به وتؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها.

ولذلك عنده أن هناك: شيء آخر لا بدّ من التفكير فيه، والطلب له وهو أن هذا التفكير الأزهري القديم قد جعل من العسير على الجيل الأزهري الحاضر إصاغة الوطنية والقومية بمعناهما الأوروبي الحديث...[1].

والقومية التي يريدها ويسعى إليها ليست القومية التي عناها الإسلام، والتي تعني الأخوّة الإسلامية، وحتى هذه فإن الإسلام سمّاها أخوّة ولم يسمّها قومية.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... ﴾[2]، وليست القومية التي يحثّ عليها طه حسين، هي بالمفهوم الإسلامي الشامل الذي يجعل البشرية كلها أعضاء متعاونين في هذا الكون الفسيح الأرجاء المترامي الأطراف المتنائي البلدان المتباين المصالح الذي يحتاج فعلاً إلى تعاون وترابط ولكن تعاون على الخير والنماء وليس على التحزّب والتكتّل والتعنصر

(١) مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، فقرة ١٣ ص ٩٩.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٠.

والتحالف على تدمير الضعيف، بل التحالف على نصرة الضعيف وإعانة المحتاج والتعارف الذي يولّد الحب فينتج منه التعاون.

يقول الله تعالى، مشيراً إلى ذلك المفهوم الشامل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

ذلك هو مفهم الإسلام للرابطة الإنسانية، لا كما يصفونها مضيقة ومضافة لهذا العنصر «القومية» فهو تعالى يذكّر جنس الناس بتلك الرابطة الشاملة التي تربطهم جميعاً وتجعلهم أسرة واحدة، وهو خلقهم من ذكر وأنثى، وهذا لعمري اسمى ما وصل إليه دين فضلاً عن أن تصل إليه النظريات البشرية القاصرة والمفاهيم الضيقة التي لا تتعدى قدمي صاحبها...

فما أكثر شيئاً يدعو للألفة والمحبّة والتعاون والسلام العالمي من أن تشعر الإنسانية كلها بأنها أسرة واحدة تنحدر من أب واحد وأم واحدة...

فلو ساد هذا المفهوم الإسلامي العالم اليوم لما وجدت بينه هذه الحروب الطاحنة والأسلحة الفتاكة التي يتسابقون على اختراعها، كل على حدة ليملك ميزان القوة في يده لكي يدمر الآخرين أو يسيطر عليهم. ولكن هذه الشمولية لا يريدها أمثال طه حسين وإنما يريد: صورة جديدة للقومية والوطنية نشأت في هذا العصر الحديث، وقامت عليها حياة الأمم وعلاقاتها... إلخ[2].

والخلاصة التي وصل إليها أنه:

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٢) المرجع السابق فقرة ١٣ ص ٩٩٠.

لا بدّ من أن تدخل الصورة الجديدة في الأزهر، وهي إنما تدخل فيه من طريق التعليم الأولي والثانوي على النحو الذي رسمناه وبالطريقة التي رسمناها وبإشراف السلطان العام . . .

ويستطرد محذراً الأزهر ومحذراً منه، بل ويهدد بتحويل الناس عنه بسبب الصيغة العلمانية حسب مخطط أعداء الإسلام، يحذر بقوله:

لا ينبغي أن يغتر الأزهر بأن الناس يسمعون له الآن ويفهمون عنه بعض الشيء، فكثرة المصريين الآن لا تزال متأثرة بعقلية القرون الوسطى، ولكن طبيعة الحياة ستخرجها غداً أو بعد غد عن هذا الطور وستصوغ الأجيال الناشئة والأجيال المقبلة صيغة حديثة أوروبية . . .[1].

هذا هو المقصود من تطوير الأزهر، والمعاهد الإسلامية عامة، أن تخرج هذه المعاهد من الصبغة الإسلامية التي يصفونها، زوراً وبهتاناً، بعقلية القرون الوسطى، وهو تعبير أطلقه المستشرقون على الفترة الزمنية التي ظهر فيها الإسلام والتي تقابل العصور المظلمة في أوروبا، عصور الجهالة النكراء، كما ذكرت شيئاً من ذلك من قبل هذا . . .

ولذا، نحن لا نقبل هذا النوع من التطوير، وإن كانت ثمة جوانب تحتاج إلى إصلاح، ولكن الإصلاح لا يعني المحو والإزالة للوجه الإسلامي والتوجه الإسلامي.

تلك عوامل متفرّقة تعرّضت لها باعتبار أنها كانت، وما زالت إلى حدّ ما ذات أثر فعّال في صياغة الناشئة صياغة تبعدهم عن الأثر الإسلامي والثقافة الإسلامية وتجفّف معين ذلك في أذهانهم . . .

ولا يخفى أثر التلميذ المستقبلي في مجتمعه، فهو ذخره المدخر، وهو

---

(١) المرجع السابق فقرة ١٣ ص ٩٩٠.

القابض على زمام المستقبل، فكيفما يكون هو يكون المجتمع، ولهذا السبب ركّز عليه المستعمر الحاقد على الإسلام، وحاول أن يعده إعداداً خاصّاً للتأثير على الحياة الاجتماعية، ولذلك فقد كانت علمنة التعليم وصبغه بالصبغة غير الدينية، ذات أثر كبير في حياة المجتمعات الإسلامية، مما نشاهده اليوم من بعد عن الدين لدى الذين وقع عليهم ذلك التأثير العلماني من جراء مناهج التعليم ذات المنهج المخالف للإسلام والبعيد عن التربية الإسلامية التي تصيغ الطالب الصياغة الإسلامية الجيّدة.

ويبرز هذا التأثير المنافي للمنهج الإسلامي أكثر وبوضوح تام فيما يتعلّق بشؤون الحكم والسياسة، حيث غدت الغالبية من المسلمين في وقت من الأوقات، لا تفهم من الإسلام غير صور العبادات المتمثّلة في شعائر الصلوات ومناسك الحج وفريضة الصوم والزكوات والتحاكم إليه في الأحوال، التي يسمونها بالشخصية وحتى هذه الأخيرة بدأت تفقد فاعليتها في بعض البلاد الإسلامية، حيث قيّد الطلاق بقيود تجعل وقوعه شبه مستحيل أو هو مستحيل بالفعل أسوة بالغربيين وغير المسلمين، وسنّوا قوانين تمنع تعدّد الزوجات وتبيح الخليلات والصديقات، حتى إنه في بعض تلك البلاد الإسلامية تزوّج شخص بامرأة ثانية، فلما عرفت الأولى القانون شكته إلى المحكمة ـ وأحضر للمحاكمة، وعندما استجوبه القاضي بأنه انتهك القانون الذي يحرّم تعدّد الزوجات، تخلّص منه الشخص بأن قال له: هذه ليست زوجتي، بل هي صديقة فقط وعشيقة!! فما كان من القاضي إلّا أن أخلى سبيله!! وسنّت دولة أخرى قانوناً يساوي بين الذكر والأنثى في الميراث...

وما سوى تلك الصور فهو متروك لمن أسموهم برجال السياسة العلمانيين، غير أنه لنا أمل في هذه الطفرة الإسلامية الثابتة الخطى المتمثّلة في الجماعات الإسلامية المعاصرة، التي تفهم الإسلام على أنه كل لا يتجزأ

والتي ترد الحاكميـة لله وحده وتنـادي بالإسـلام «دستوراً» شـاملاً لـلأمة الإسلامية.

وقد انعكس هذا الفكر الإسلامي النيّر على الـطلاب في المدارس والجامعات بالرغم من منـاهج التعليم ذات اللون العلمـاني الغربي التي تدرّس لهم، وهي التي أثارت الرعب والهلع في قلوب أعداء الإسلام وهي التي عناها أحد المستشرقين بقوله[1]:

إن الحركات الإسلامية تتطـوّر عادة بصورة وسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أمارتها ما يدعوهم إلى الريبة في أمرها.

فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلّا وجود الزعامة، ولا ينقصها إلّا ظهور صلاح الدين من جديد، ليعيد لهـا قوتهـا ويكسبها الثقـة بالنفس وينفض عنها غبار التبعية للغرب في مناهج التعليم... إلخ.

وهو أمر حقيقي لا مرية فيه، أن العالم الإسلامي اليوم يحتاج إلى القيادة الموحّدة التي تجمع شمله وتلم شعثه الذي تفرق شذر مذر، يفقد الخلافة الإسلامية التي ترفع الراية وتقود السفينة التي فقدت ربانها، الذي يقودها إلى بَرِّ السلامة فتاهت في بحر لجيٍّ.

ولا تـزال هذه الحـركات الإسـلاميـة التي تـطالب بـالتحـاكم إلى شرع اللّه عـز وجـل تلاحق من قبل أعداء الإسلام في الخارج والداخل.

فهذه أمريكا ترصد تحركات هذه الجماعات وتخشى أن تقوم بعمل إسلامي وتوعية جماهيرية تعيد الإسلام إلى تالد مجده، حتى ولو سمعت

---

(١) هو المستشرق ورئيس المبشرين «جب» في كتابه المسمى وجهة الإسلام أو إلى أين يتجه الإسلام. انظر صفحة ٣٦٥.

بجماعة ما قامت بعمل تنسبه تلك الجماعة للإسلام، ولو كان يخالف روح الإسلام وسماحته ومرونته، مثل العمل الذي تقوم به طائفة الشيعة المخالفة لأهل السنة والجماعة والتي نعد التزامها منحرفاً ومائلاً عن الإسلام الصحيح ومخالفتها لنا في الأصول وليس في الفروع... حتى لو سمع أعداء الإسلام أن مثل هؤلاء قاموا بما أسموه بالعمل الإسلامي فإن أعداء الإسلام يجن جنونهم بمجرّد سماع كلمة «إسلام» سواء كان منحرفاً أو صحيحاً، لهلعهم وذعرهم من الإسلام.

جاء في بعض الصحف ما يلي:

«بعد أحداث إيران، طلب «زيفنيو بريجنسكي» مستشار الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي من مساعديه إعداد تقرير خاص عن الحركات الإسلامية في العالم العربي والدول الإسلامية، وأثرها الديني والسياسي في التأثير على نظام الحكم والنخبة الحاكمة في البلاد...

وكانت مصر على رأس هذه الدول التي تحاول الإدارة الأمريكية معرفة أثر الإسلام على النظام السياسي فيها...

وتتساءل الإدارة الأمريكية، مركّزة على مصر خوفاً من تكرار الحركة الإيرانية:

هل ما حدث في إيران من انتفاضة شعبية بقيادة أئمة الدين الإسلامي من الممكن أن تتكرر في مصر؟ وهل ما حدث في إيران قد يدفع رجال الدين إلى التحوّل أيضاً إلى رجال دنيا والرمي بثقلهم في حلبة السياسة؟[1].

---

(١) الإدارة الأمريكية تتحدث عن الدين الإسلامي من مفهومها هي للأديان على أنها بعيدة عن السياسة وأن هناك رجالاً للدين ورجالاً للسياسة، ولكن عندنا في الإسلام لا يوجد رجال دين ورجال سياسة أو رجال دنيا ورجال دين، بل الكل تحت راية الإسلام يمشي بمقتضاه، وعندنا علماء وليس رجال دين، حسب التعبير الكنسي.

وتحاول حصر أمكنة النشاط الإسلامية وأوجه ذلك النشاط حتى يمكن توجيه ضربة قاضية له بطريقة أو بأخرى حيث: تعتبر الجامعات المركز الرئيسي لقيام الحركات الدينية بين شباب الجامعات حيث لوحظ مؤخراً انتشار ظاهرة العودة لأصول الدين بين مجموعات كبيرة من الشباب والشابات وظهر ذلك على تصرفاتهم وملابسهم ومعاملاتهم الاجتماعية...[1].

وتعرّض التقرير لحصر الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي في أفغانستان ضد الحكم الشيوعي وتحرّكات المسلمين في روسيا والفلبين... وغيرها من أجزاء في إفريقيا وبالأخص في السودان وتونس...

وعلى العموم فإنه في هذه الآونة نجد عملية ملاحقة شديدة للحركات الإسلامية من قبل المتربصين بالإسلام الذين جندوا لضرب تلك الصحوة كل أجهزتهم الإعلامية وكثفوا من مخابراتهم وسهر على ذلك رجالهم حيث لا نكاد نجد صحيفة من صحف الغرب العلماني أو الشرق الشيوعي تخلو من مقال عن الإسلام وإنه سوف يكتسح العالم عما قريب ويعود به إلى القرون الوسطى...

وعلى العموم فإن الناظر إلى قصد هؤلاء من تطوير الأزهر وكل المعاهد الإسلامية يرى أن القصد هو قتل الروح الإسلامية والحماس الإسلامي فيها.

وهكذا قد رأينا تركيزهم على التعليم لأن في إخراجه إخراج المجتمع عن الإسلام، عاجلاً أو آجلاً.

---

(١) تلخيص عن صحيفة الشرق الأوسط، عدد الخميس والجمعة ٨ و ١٩٧٩/٢/٩ م.

الفصل الثاني

انتشار العلمانية في الإعلام

مدخل:

الإعلام من الوسائل التي استعملها الإنسان من قديم الزمان، وإن تنوّعت الطريقة التي استعمل بها هذه الوسائل للاتصال بين الناس، وحمل المضمون لهم.

فالإنسان دائماً يبحث عما يساعده ويعينه على العيش الرغد على ظهر هذه البسيطة ويسهل له مجال التعاون بينه وبين بني جنسه من البشر.

ولهذا فقد جاء التعريف العام للإعلام بهذا المعنى الشامل الذي يدور حول تعريف الناس بعضهم ببعض وتبيصرهم بما يجري حولهم.

والإعلام مصدر أعلم، وهو أعم من الإلهام... وعند المحدّثين هو أن يعلم الشيخ الطالب أن هذا الكتاب روايته أو سماعه مقتصراً عليه...[1].

وعموماً فإن كل حمل أو نقل للمعلومات والمعارف والثقافات وتبصير الناس بالحق منها والباطل منها يعتبر إعلاماً وكذلك ما كان من ذلك من مضمون سليم جار على الحق دافع للباطل...

---

(١) محيط المحيط، مادة علّم ج ٢ ص ١٤٦٢.

الإعلام في نظر الإسلام:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيه ورسوله محمداً ﷺ للخلق كافة ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً ومرشداً وهادياً في كل شؤون الحياة، تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو نور لكل عبد منيب إلى الله راغب في خيري الدنيا والآخرة.

ولذلك فقد اعتنى القرآن بتنظيم شؤون الحياة كلها وما يكون عليه المآل بعدها.

جاء ذلك كله إعلاماً وإنباء للناس وتبصرة في كل ما يبتغي ويطلب سواء في العاجلة أو في الآجلة، فهو كما وصفه رسول الله، ﷺ، بقوله الذي يدل على هذا الشمول والإحاطة:

«كتاب الله، تبارك وتعالى، فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قسمه الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لا تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد، من علم علمه شبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[(١)].

إذن، إعلام القرآن من نوع فريد، فهو يعلم عن الماضي والحاضر، والمستقبل، وهذا ما لا يوجد في غيره، ذلك لأنه من لدن حكيم خبير عليم.

(١) الترمذي باب ما جاء في فضل القرآن، ٥/١٧٢.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[1].

والإنذار هنا أعم من مجرد التخويف، فهو في الحقيقة إعلام وأخبار، يحمل عن طريقه الرسول، ﷺ، للناس كل ما يحتاجون إليه في حياتهم وفي معادهم، وهذا كل ما يهم الإنسان ويتطلع للإخبار به وعنه، وقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر.

وهذا الخبر والنبأ عن الماضي وعن المستقبل جاء في القرآن في مواضع أخرى، فقد قال، تعالى:

﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2].

ومن هنا نلخص بعض خصائص الإعلام في الإسلام في نقاط مختصرة فيما يلي:

---

(١) سورة المدثر: آيات ١ ـ ٤.

(٢) سورة الروم: آيات ١ ـ ٥.

خصائص الإعلام الإسلامي

أولاً: أنه إعلام صادق:

يخبر عن الحقيقة ولا مجال فيه للدعاية الكاذبة أو الخادعة المزيفة للحقائق المموّهة على الناس، أو الإعلان المثير للشهوة غير المرغوبة، كل ذلك يخلو منه الإعلام في الإسلام، ذلك لأنه إعلام ملتزم بإيصال الحق وحمل المضمون الفاضل.

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[1].

والإعلامي المسلم لا يحابي ولا يجامل، بل يقول لصاحب الباطل، أنت على خطأ، ويبين له ذلك ويخبره بجهله وعدم علمه، ويقول للمحق قد أصبت وأحسنت:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء: آية ١٠٥.

(٢) سورة الكهف: آية ١ ـ ٥.

ثانياً: إعلام ينشر الحق ويذيعه ويدحض الباطل ويقمعه:

إن الإعلام الذي يحمل الحق وينشر دعوة الحق ويدحض الباطل، والإعلام الذي يبلغ رسالة الحق وينشر العدل ويذيع الفضيلة ويشيعها. إن الإعلام الذي يفعل ذلك هو إعلام الإسلام الذي يسير على أسس القرآن وهدى السنة وإرشاد الخلفاء الراشدين...

إن الإعلام في الإسلام، في كل مجالاته، من تعليم وتثقيف وتدبير لشؤون المجتمع، وتخطيط للسياسة... في كل ذلك يسلك الصدق وينبىء بالخير وينذر ويعلن عن الشر لأخذ الوقاية والحماية منه، وينشر الحقيقة كما هي حقيقة، وينقل الحادثة كما وردت ووقعت، ولا يحبّر ولا يزيّن الباطل بالنمرق البرّاق الخادع ليسحر أعين الناس ويرهبهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1].

فهو لا يقبل الخبر على ما جاء عليه من أي جهة، كما تفعل وكالات الأنباء التي لا تتحرّى الدقة في نقل الخبر، ولا تصدّق في توزيعه على عملائها.

الإعلام في الإسلام يتحرّى دقة الخبر حتى لا يتأذى أو يتضرر أحد بالخبر غير الدقيق الممحّص والصادق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[2].

وكذلك فإن الذي يكذب بالصدق بعد أن يأتيه فهو من الظالمين،

---

(١) سورة التوبة: آية ١١٩.
(٢) سورة الحجرات: آية ٦.

ذلك لأنه بتكذيبه الصدق يتسبب في إضرار نفسه ومجتمعه:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾[1].

ولما كان الكذب يورد صاحبه الموارد ويجر على الأمة الويلات والخسران، فقد حذر منه الرسول، ﷺ، وحثّ على الصدق الذي به يسود العدل والرخاء في المجتمع الصادق إعلامه.

عن عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي، ﷺ، قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[2].

ثالثاً: إعلام موضوعي:

الإعلام في الإسلام يتّسم بالموضوعية والواقعية، فهو ليس إعلاماً شخصياً ذاتياً ضيّق النظرة ينحاز بالقضية لصالحه الشخصي، ولو كان الحق عليه، بل يذكر قضية الخصم إلى جانب قضيته، ويطرح القضيتين للعقل ليحكم عليهما ويضعهما في ميزان العدل والإنصاف، ويترك كلاً يطرح دليله ويبرز حجته بحرية تامة، فهو يتوخّى العدالة أينما كانت وحيثما وجدت وعلى أية صورة جاءت، ذلك لأنه يأخذ ذلك المبدأ من قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة الزمر: آية ٣٢.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٠/٥٠٧، باب رقم ٦٩.

(٣) سورة المائدة: آية ٨.

وهذا ما لا نجده في الإعلام الحديث، حيث إنه في غالبه إعلام شخصي منحاز يمدح نفسه ويواليها، ويذم مخالفيه، ولو كان على الحق ولا يذكره ولو بحسنة واحدة، الشيء الذي جعله إعلاماً مضلّلاً يلبس الباطل ثوب الحق ويستر الصواب، الذي لا يكون في صالحه، بغطاء الباطل الكثيف، وهو ما نلاحظه في عمل وكالات الأنباء العالمية الكبرى في احتكارها للخبر لصالحها وتفسيرها له حسب ما يخدم أغراضها الشخصية الشيء الذي جعل كلمة الحق لا تبدو للعالم ظاهرة.

وموجز القول عن الإعلام في الإسلام، هو أننا نجده يهتم بالراوي للخبر ويهتم كذلك بالرواية نفسها وبالخبر المروي، وهذا يندر أن تجده في الإعلام المعاصر غير الإسلامي، حيث في عمومه يهمل المروي، ويلقي بالخبر كيفما جاء إلّا أن يكون ذلك في مصلحته فيحوره عليها، ولا يهتم كثيراً بشرف الوسيلة ولا الهدف.

ولذلك فقد حاز الإعلام في الإسلام صفة النزاهة والكمال، فهو مثلاً لا يستعمل وسيلة الرقص المحرّم للإعلان عن مبادئه وأفكاره، كما أنه ينأى بنفسه عن اتخاذ الأساليب والوسائل التي تخدش الحياء وتنال من الفضيلة وتقوم على الخداع والتضليل، وهذا كله يستقيه من أصول عقيدته التي توجب عليه ذلك، فهو منهج لا يتخطّاه وطريق مرسوم لا يتعدّاه ونهج لا يحيد عنه والتزام لا يفارقه.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٣.

مجال الصحافة وأثره العلماني

وإنا هنا بصدد الكلام عن آثار العلمانية في الإعلام وبالأخص الصحافة وتأثيرها أيضاً في المجتمع، لا أودّ أن أعدّد أو أتتبّع كل تلك الآثار، لأن ذلك شيء كبير وأمر طويل يحتاج إلى عدد من الباحثين وعدد من الكتب، مما لا يحتمله هذا الكتيب عن الصحافة العلمانية ضمن غيره من الأشياء التي وقع عليها التأثير العلماني، ولكن لما كانت الصحافة من بين سائر وسائل الإعلام لها أثر كبير وانتشار واسع، فقد خصّصت لها بعض الجوانب في هذا الكتاب لأتطرق لبعض تأثرها هي بالعلمانية ثم تأثيرها هي بعد علمنتها على المجتمع وصبغه بالصبغة العلمانية، سوف أعالج ذلك كله ولكن باختصار.

تعتبر وسائل الإعلام المقروءة، ولا سيّما الصحف والمجلّات، ذات أثر كبير في قطاعين مهمين من المجتمع، وهما: الطبقة ذات الثقافة العالية، والطبقة ذات الثقافة المتوسطة، لأن معظم القرّاء للصحف والمجلات من هذين النوعين.

وموضع الخطر يأتي من أن المثقفين هم الذين يتولون مقاليد الأمور ويقومون بشؤون الطبقات التي لم تنل حظاً من التعليم وهم الأكثرية في العالم الإسلامي، فإذا كان هؤلاء صالحين، فإن البقية الباقية تبعاً لهم، وكذلك هم الذين يرسمون الخطط التربوية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية، بل والعسكرية...

ولذلك فقد تأثرت هذه الفئة من المسلمين كثيراً بما تكتبه الصحافة العلمانية، وبما تلقته من ثقافة غربية غير إسلامية، ولا صلة لها بالدين أصلاً. فعكسوا كل تلك الأفكار على مجتمعهم وتأثر المجتمع بهم، لأنه يرى فيهم الفئة المستنيرة، وهم الذين يريدون تطوير البلاد ويلحقونها بركب الأمم التي يرون أنها متقدمة، ولذلك نجد أن: أهم ما يلفت النظر في عملية التطور، هذه الجهود الضخمة التي ظهرت في كل بلدان الشرق الأوسط لم يكن وراء هذه الجهود الأوربيون، بل جاءت نتيجة لعمل الشرقيين المهنيين من أبناء الطبقة الوسطى، وكان في طليعتهم المحامون والصحفيون، فكل مراكز الدولة الحساسة الآن هي في أيدي المتغربين الذين أدخلوا الأساليب الغربية إلى سائر مناحي الحياة الوطنية، ولم يكن هذا ناشئاً عن دراستهم المسبقة لفوائد «التغريب» بل لأنهم وجدوا أن من الطبيعي القيام بحركة تغريب[1].

وهذا الفرض الطبيعي الذي يعنيه «توينبي» هو ثمار مناهج التعليم والذي نمّته وسقته وتعاهدته وسائل الإعلام العلمانية، لقد تضافر على ذلك النهاء الكتّاب العلمانيون مع الصحافة العلمانية مع رجال الكنائس... يدعم الجميع الاستعمار المدفوع بالصهيونية لخدمة اليهود وتوطيد نفوذهم في البلاد الإسلامية لازدراد، فلسطين وابتلاعها، الذي تم لهم مؤخراً بعد حرب عام ١٩٦٧ م وقبلها حرب عام ١٩٤٨ م، وقبل ذلك كله مهّد له وعد وزير خارجية بريطانيا «بلفور».

هذا هو الوضع الطبيعي الذي يزعم المستشرق أنه أصبح أمراً عادياً، نتج ذلك كله بعد أن ضمن المستعمر أن له أنصاراً وأعواناً يمثّلونه خير تمثيل ويقومون له بالمهمة خير قيام، وهذا هو الأمر الطبيعي في القيام بحركة «التغريب».

---

(١) الإسلام والغرب والمستقبل، أرنولد توينبي، تعريب، د. نبيل صبحي.

إن لـوسائـل الإعـلام المقـروءة خـاصيـة تميّـزت بهـا أكـثر من غيرها، حيث إنها تعطي القارىء مندوحة وبرهة للتفكير والتأمـل وتدقيق النـظر وإعمال الفكر فيها بين السطور، مما يجعله يتأثّر بالشيء المكتوب، ويداخل أعماق نفسه ويمتزج بمشاعره، ويسرح معه بخياله أحياناً، ويعمل فكـره أحياناً أخرى مما يحدث له أخذاً ورداً وشداً وجذباً بينه وبين نفسه بالنسبة للأفكار المكتوبة.

ولقـد كـان لـوسـائـل الإعـلام المقـروءة وعـلى الأخص الصحف والمجلات، والكتب، أثر كبير في ترويـج الأفكار والمـذاهب والنظريـات الفاسدة.

ولنعرج الآن قليلاً على الصحافة بالأخص، لنرى جهدها في نشر وتوطيد، تلك الأفكار الخارجة عن الإسلام ومنهج التربية الإسلامية.

أثر الصحافة العلمانية في المجتمع الإسلامي

كانت الصحافة في المجتمع الإسلامي عامة تقع تحت تأثير الاستعماري الغربي، وعلى الأخص في أوائل القرن الحالي، عندما كانت البلاد الإسلامية قد شهدت تجزءاً كبيراً بسبب هذا الاستعمار الذي جعل منها دويلات بعد أن وئدت دولة الخلافة الإسلامية ومحي اسمها من الوجود وعفي على رسمها من الأرض.

فقد جنّد المستعمر، عدو الإسلام ومبعثر المسلمين، الصحف لكي تنفث سموم المذاهب الهدامة كالعلمانية في المجتمع الإسلامي لتزلزل أركانه وتهدم بنيانه.

وقد ظهرت صحف مأجورة وذات غرض، تزعمت فكرة إدخال العلمانية في المجتمع الإسلامي، وكان كتّابها ممن أوقعوا في فخ الثقافة العلمانية الغربية النابذة لتدخل الدين في مجالات الحياة وشؤون الحكم والقانون.

وكانت الصحافة في ذلك الوقت ذات مناهج وطباع متنوعة ومختلفة، حسب طبيعة الوقت الذي كان يموج من جهة بالأفكار والمذاهب الأدبية التي سخّرت تسخيراً فاضحاً لمحاربة الأدب الإسلامي والاتجاه بها نحو الأدب المكشوف الماجن، تعرضه على المجتمع في شكل مقالات أدبية وقصص غرامية ومسلسلات إذاعية وأفلام «سينمائية». . .

وكان البعض الآخر من الصحف يتجه نحو الحروب الدائرة في العالم

والقوى المتصارعة هناك، وبعضها كان قد آل على نفسه نشر تلك الأفكار والمذاهب الهدامة الوافدة من الغرب.

وتمثّل النوع الأخير صحيفة المقتطف[1] التي ظهرت في لبنان عام ١٩٧٤ م ثم نقل عملها ومقرها إلى مصر عام ١٨٨٢ م ومثلها رصيفتها صحيفة «الهلال»[2] والتي برزت إلى عالم الصحافة عام ١٨٩٢ م.

وأصحاب هذه الصحف هم الذين تزعموا الدعوة إلى العلمانية والتحررية بالمفهوم الغربي.

وأهمية هذه الصحف لا ترجع إلى ما كانت تذيعه فقط، ولكن أهميتها الكبرى كانت ترجع إلى أنها كانت مركزاً لتنشئة الجيل التالي من الصحفيين على هذه المبادىء ذات اللون اللاديني وهو الجيل الذي ربى هو الآخر الأجيال اللاحقة له، ومن ثم توالت هذه السلسلة، من الأجيال الذين قادوا العلمانية الحقبة تلو الحقبة متولين كبر كل الذين أتوا من بعدهم...

وبسبب هذا المسلسل فقد تشكل جيل لا يستهان به في بداية القرن العشرين كاد أن يمسخ الحياة كلها بهذا المسخ المشوّه من العلمانية...

كانت غالبية الصحف تنسج على هذا المنوال ما عدا بعض الصحف وبعض المجلات الأزهرية أو بعض المجلات التي أنشأتها الجماعات الإسلامية كمجلة الفتح التي كان يرأس تحريرها الشيخ عبدالباقي سرور وتدار بواسطة محيي الدين الخطيب، ثم أخيراً مجلة الدعوة الإسلامية...

---

(١) أسسها كل من يعقوب صروف وفارس نمر من نصارى خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت.

(٢) أسسها، جرجي زيدان وهو مثل سابقيه.

وغيرها شيء قليل من المجلات التي وجدت مضايقات كبيرة ووضعت أمامها صعوبات شتّى.

ونفس هذه الاتجاهات العلمانية في الصحافة في العالم الإسلامي، هي ما عناه المستشرق «جب» حين لاحظ: أن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي، وأن مديرو الصحف اليومية ينتمون في معظمهم إلى - من يسميهم - بالتقدميين، ولذلك كان معظم الصحف واقعاً تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية... ثم يستطرد موضحاً أهمية هذه الصحافة العلمانية التي دعوا وربوا محرريها على أيديهم، ومؤكداً الدور الفعّال الذي تقوم به لتمكين المستعمر في البلاد الإسلامية، وأنها تسير في نفس الاتجاه الذي رسمه لها، وتتبع نفس المنهج الغربي العلماني حيث إنها:

تحتوي كذلك على مقالات تشرح الحركات الاقتصادية والسياسية في أوروبا، وعلى مقالات مترجمة من الصحف الأوروبية...

ثم إن كتّاب هذه الصحف، بما ينشرونه من مقالات وأخبار، يطلعون الرأي العام - في البلاد الإسلامية - على ما يجري في الغرب من أحداث وما يستحدث من آراء[1]. وبهذا فهم يطلعون المجتمع الإسلامي على كل ما يدور هناك في ذلك المجتمع من آراء فاسدة ومذاهب هدامة وأخلاق منحلة وفضيلة مضطربة ودين جعل من «الخرافات» البالية التي تعوق مسيرة التقدم العلمي!!.

ينقلون كل ذلك دون أن ينبهوا على أوجه الفساد، مما أدّى إلى إساءة القارىء المسلم وبلبلة أفكاره، فلا يدري أهذا من دينه أم مما هو وافد؟!.

ومن هذه الزاوية وفدت كثير من الأفكار الضارة إلى المجتمع

---

(١) المرجع السابق، توينبي.

الإسلامي تحمل مبادئها الهدامة وفلسفتها المادية الإلحادية متشبّثة بالعلم، ومن هذه الناحية ألصقت العلمانية بالعلم، والعلم منها براء، فهي فلسفة مادية عقلانية ترجع كل شيء إلى العقل وتخضعه لميزانه سواء كان ديناً أو إلهاً، وفي الأخير يكمن الخطر في عرضه على هوى النفس وتجربة العقل المجرّد عن الهداية، وليس العقل الذي ينظر في الدليل ومنه يأخذ الشاهد على وجوه الإله، بل هو يعامل الله كما يعامل أي مادة صمّاء خرساء... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1].

يفعلون هذا، في حين أن العلم إنما يؤمن بالتجربة العلمية المعملية ويخضع لها الماديات المحسوسة ولا يتطرق إلى ما وراء المادة لا من قريب ولا من بعيد، وبهذا يعلن حياده وبراءته من المذاهب والفلسفات المادية كالعلمانية مثلاً.

ومن قبيل هذا اللبس والإيهام الذي ألبست به هذه الصحافة على المجتمع أمر هذه المذاهب والفلسفات وبثتها له من خلال ضباب كثيف من المعميات والمسميات جعل الرؤية غير واضحة، حيث جاؤوا بألفاظ لمسميات تعني غير ظاهرها ومن هذا اللبس القول بأن العلمانية من العلم[2] حتى إن بعض المثقفين، بل وبعض العلماء الدينيين ظنّوا أن العلمانية من العلم.

ومن هؤلاء على سبيل المثال، فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أخذته المشابهة في الإسم فظن أن العلمانية من العلم، فلقد زعم أن

(١) سورة الأنعام: آية ١٠٣.

(٢) انظر كتابنا: نشأة العلمانية ودخولها المجتمع الإسلامي.

العلمانية لا تناقض العلم ولا تناقض الدين، بل هي العلم وهي تؤيد الدين، وأن الدين الإسلامي دين علماني!!.

وحتى أكون منصفاً أورد مقالته بحروفها:

قال الشيخ: أولاً أنا أريد أن أناقش كلمة «علمانية» كي أبيّن أيضاً أنهم مخطئون ومضللون في هذه التسمية، ما معنى كلمة «علمانية»؟ معناها أنها تسير في أقضيتها وفي كل مجالاتها على وفق ما يجيء به العلم، ونقول لهم:

أنتم تقولون: علمانية، بمعنى ليست دينية، ومن الذي قال إن الدين ليس علمانياً؟.

الدين علماني في مجال العلم الذي يؤدي قضية يقينية لا اختلاف عليها، وهاك الدليل عليها:

ويستمر الشيخ مؤكداً على أن العلمانية من صميم الأديان وخاصة الإسلام قائلاً:

في الأمور المادية ما جاء دين ـ وخاصة الإسلام ـ ليناهض العلمانية، بل هي فيه بأوسع معاني الكلمة!!، ويقول معتقداً أن العلمانية الصحيحة الخاضعة للعلم التجريبي لا تناقض الدين، إذن، الذين يقولون، علمانية، مقابل الدين نقول لهم:

أنتم جهلة لا تعرفون حتى أن تعقدوا المقابلة!!.

والعلمانية لا تقابل الدين، العلمانية في مجالها هي مع الإسلام، ضد العلمانية في غير مجالها!! ويختم فضيلة الشيخ الشعراوي مقالته التي حاول أن يوفق فيها بين متناقضات لا يمكن اجتماعها بحال من الأحوال، فإذا كانت الخطوط المتوازية يمكن أن تلتقي فهي يمكن أن تلتقي مع الدين كذلك، ولكن هيهات هيهات!!.

والمتناقضات التي يريد الشيخ التوفيق بينها هي: الدين والعلمانية، والعلمانية والعلم، فكل واحد من الإثنين لا يلتقي مع العلمانية، لا الدين يلتقي معها، ولا هي من العلم في شيء.

فهي تقوم على نفي الأول وعدم الاعتراف به في ميدان فلسفتها العقلانية، القائمة على المقدمات المنطقية الفلسفية[1] القائمة على المادة.

والثاني لا يلتقي معها، حيث هو تجربة مادية، يخضع الأشياء المادية المحسوسة للتجارب المعملية ثم بعد ذلك يحكم عليها، لا أن يحكم عليها بالعقل فقط وهو حكم نظري.

والعلمانية فلسفة مادية تخضع الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة، الجوهر والعرض، ما يؤمن به بالغيب وتدل عليه الشواهد الحسية، وما لا يؤمن به إلّا أن يقع تحت الحس.. كل ذلك تخضعه العلمانية للميزان العقلي، والعلم كما ذكرت، يخضع الماديات فقط للتجربة المعملية ولا يبحث عن الغيبيات أو ما وراء الحس، ولا يحاول أن يخضع الغيب لتجاربه، ولم يحكم عليه حكماً عقلياً فلسفياً كما حكمت عليه الفلسفة المادية العلمانية.

أما الدين والعلم، فلا تناقض بينهما، حيث هو وتجربته المادية خاضعان ومسيران بيد القدرة الإلهية التي تسير كل هذا الكون، وهذا الذي ينبغي المسير إليه والمصير.

ويختم الشيخ مقالته بقوله:

وهم عندنا يعقدون المقابلة بين العلمانية والدين يريدون أن يفهموا النشء الذي ليس لديهم «خميرة» أن الدين مناقض للعلمانية، فنقول

---

(١) للتوسع في هذا انظر كتابنا: نشأة العلمانية فصل معاني العلمانية وفصل طور العلمانية المتطرفة.

لهم: كذب، إن الدين لا يناقض العلمانية!! العلمانية بمعناها الحقيقي الذي يجب أن يفهم هي الدين!![1].

ولعلّ الذي جعل الشيخ يعتقد أن العلمانية لا تناقض الدين، هو اعتقاده أنها من العلم التجريبي، وهذا الاعتقاد لم يوافقه الصواب، وقد بيّنت أوجه الخلاف الجلي البيّن بين العلمانية والعلم بتفصيل دقيق وموسع في مكان غير هذا[2].

وهذا جزء من أثر الصحافة العلمانية على المجتمع والباسها على الناس الحق بالباطل وتغطية كثير من المذاهب والأفكار بأغطية ظاهرها غير باطنها.

ولمّا للصحافة من أثر فعّال في تغيير مفاهيم المجتمع وتوجيه ثقافته الوجهة التي تريدها، لما كان للصحافة ذلك الأثر، فقد ركّز عليها أعداء، الإسلام تركيزاً كبيراً وراحوا يصنّفون الصحافة في العالم الإسلامي ويدرسون خط سيرها الفكري الذي تمشي عليه، هل هو خط سير إسلامي أم عكس ذلك؟.

وهذا ما عناه أحد المستشرقين[3] من أن الصحافة التركية هي بطبيعة الحال وطنية لا دينية، وهي لا تجرؤ على أن تكون دينية، لأنها مراقبة من الحكومة مراقبة شديدة[4]. أما الصحافة المصرية فهي بالعكس من اتجاه الأولى الثوري، تتطور ببطء وتعرض طائفة متنوعة من الآراء الجديدة، وهي على كل حال لا دينية في اتجاهها، أما الصحافة في البلاد العربية

---

(١) انظر مجلة الرسالة الإسلامية التي تصدر في بيروت (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦) ص ٧.

(٢) انظر كتابنا: نشأة العلمانية الفصل الثاني.

(٣) انظر كتاب «Whither Islam» P: 334.

(٤) هذا من عهد الحكومية الكمالية العلمانية، أي بعد إلغاء الخلافة الإسلامية، لأن الكتاب لم يظهر إلا عام ١٩٣٢ م.

الأخرى، في غرب آسيا فهي أكثر تمسكاً بالجامعة العربية، أما الصحافة في الهند فلا يزال سلطان الدين عليها قوياً.

هذا الرصد الدقيق والتتبع المتواصل والدراسة المتكاملة للصحافة الإسلامية، أدّى فيما بعد بأن يدسّ هؤلاء المترصدون أعوانهم الذين تربّوا على أيديهم إلى هذه الصحف والمجلات وأن يسيطروا عليها، وكذلك فعلوا عند ظهور بقية الأجهزة والوسائل الإعلامية الحديثة من «الراديو» و «التلفاز» و «السينما» وأخيراً جهاز «الفيديو».

والحقيقة التي لا تنكر، أنه كان للإعلام المقروء - ومنه الصحافة - أثره الكبير في طبع المجتمع الإسلامي بالطابع العلماني، ذلك بما كان يشنه، هذا الإعلام من حملات إعلامية مركّزة على الإسلام والتقليل من شأنه في هذا المجتمع، وفي نفس الوقت عكس الثقافة الغربية اللادينية بصورة تنمّ للقارىء والمستمع المسلم بأنها ثقافة العالم المتحضّر، عالم «التكنولوجيا»، وبما أثاره هذا الإعلام من قضايا فكرية وأخرى اجتماعية مختلفة، مثل قضية المرأة، ووجوب العمل على «تحريرها» من القيود التي قيدها بها الإسلام - في زعمهم - مثل ضرب الحجاب عليها، ومنعها من الاختلاط بالرجال والخروج للعمل معهم... وإبراز الصور الخليعة العارية، وعرض الأزياء التي تخالف الشرع الإسلامي وقواعده العامة على صفحات المجلات والصحف. وغير ذلك من الحملات التي يقصد بها إخراج المسلم من دينه أو على أقل تقدير يجعله لا يأبه كثيراً بالقيم والمثل الإسلامية.

إذا انضاف إلى هذا المناهج التعليمية في المدارس التي أصبحت لا تزود الطالب بالثقافة الإسلامية الكافية التي يستطيع أن يميّز بها الغث من الثمين.

وهذا بدوره جعل الشارع الإسلامي يبدو في منظره العام وفي مظهر

المسلم، وكأنه قطعة من البلاد الغربية الأوربية، اللهم إلاّ القليل من البلاد الإسلامية التي تحاول الإبقاء على المظهر الإسلامي الخارجي، ولو شكلاً فقط، وإلاّ فالداء عام، وإن تفاوتت درجات ذلك.

وهذا الواقع الذي أصبح فيه العالم الإسلامي اليوم، هو الذي رسمه ونفذه أعداء الإسلام، واستمرّ فيه ونماه مقلدوهم من تلاميذ المستشرقين والمفتونين بالغرب، وهو ما لاحظه «جب» في بهجة وسرور حين ذكر:

أن الإسلام بوضعه عقيدة لم يفقد إلاّ قليلاً من قوته وسلطانه، ولكن الإسلام بوصفه قوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية، قد فقد مكانته، فهناك مؤثرات أخرى تعمل لجانبه، وهي في كثير من الأحيان، تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك، إلى المجتمع الإسلامي في قوة وعزم، فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس، وللفلاح اتجاه سياسي[1] ولم يكن له أدب إلاّ الأدب الديني، ولم تكن له أعياد إلاّ ما جاء به الدين، ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجي إلاّ بمنظار الدين، كأن الدين هو كل شيء بالقياس إليه، أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود، وتعدّدت ألوان نشاطه، الذي لم يعد مرتبطاً بالدين، فقد أصبحت له ميوله السياسية، وهو يقرأ أو يقرأ له غيره، مقالات في مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين، بل إن وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الإطلاق، وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل، ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيى فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها، ولكنه يعرف، على كل حال، أنها ليست مأخوذة من القرآن،

---

(١) يقصد لم يكن له ولاء ونصرة لمذهب سياسي أو مذهب فكري أو أية فكرة تعارض الإسلام وتخالف منهجه، مثل ما حصل بعد ذلك عند الإعجاب بالأفكار والثقافات والمذاهب الغربية.

وبذلك لم تعد التعاليم الدينية الدقيقة صالحة لإمداده[1] في حاجاته الروحية فضلاً عن حاجاته الاجتماعية، بينما أصبحت حاجاته ومصالحه المدنية الدنيوية هي أكثر ما يسترعي انتباهه، وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محدودة...[2].

ويمضي المستشرق في تحليله للمجتمع الإسلامي، وكيف أن الأفكار الغربية جعلته يبدو علمانياً في كل شؤون حياته، وهو يزعم أن هذه المرحلة التي وصل إليها المسلمون لا يمكن الرجوع عنها بسهولة ويسر، نسبة لتمكن وتغلغل الفكر الغربي فيهم، هذا الفكر الذي يزعم أنه شمل كل نواحي الحياة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي أجهزة الإعلام وفي التعليم والقوانين التي يتحاكم إليها المسلم، وحتى في الشؤون الأسرية والمنزلية الخاصة، أصبحت الحياة في كل ذلك تبدو غربية، بل ويحبذ المسلم، ولا سيّما الشباب، أن يبدو بالمظهر الغربي، وأن يظهر نفسه أنه مثقف ثقافة غربية...

ثم يعدّد بعد ذلك البلاد الإسلامية بلداً بلداً، محلّلاً خط سيرها نحو الغرب، مما يظهر أن هؤلاء النفر من أعداء الإسلام متتبعون للمسلمين راصدين كل خطواتهم، حتى إذا ما رأوا بصيص أمل نحو الإسلام أوعزوا

---

(١) هذا الزعم من المستشرق لا يمكن أن يقول به مسلم صادق الإيمان بحال من الأحوال، إلا بعد أن يخلع الإسلام من عنقه، فالمسلم يعتبر أن الإسلام يمده بكل ما يلزمه في حياته، بل وبعد مماته ولكنه دس المستشرقين الرخيص الذي يعوزه الضبط العلمي.

(٢) المرجع السابق. ثم إن ما ذكره المستشرق من انحصار الدين عند المسلم في طقوس محدودة وذات نطاق عبادي ضيق، لا يصيب الحقيقة ولا يقترب من الصواب، وذلك أن المسلم الواعي بدينه والذي لم تجرفه الثقافة الغربية، ولا سيما في عهد الصحوة الإسلامية هذه، نجد المسلم الواعي يفهم الإسلام كلا لا يجزء، يفهمه شريعة وعقيدة، حكم وصلاة، قانون وحياة اجتماعية....

لزبانيتهم أن أخمدوا هذه الجذوة التي اتّقدت، وهو ما يحصل من حين لآخر من ضرب للحركات الإسلامية إذا ما قويت شوكتها وشبت عن الطوق، ويشمل هذا كل الأجهزة والمؤسسات التي تساعد على نشر الدعوة الإسلامية، بما في ذلك الصحف والمجلات الإسلامية، فإن هذه الصحف توقف إذا ما هي تبنّت الدعوة إلى عمل إسلامي موحّد، وأجهزة المذياع إن توقف نهائياً، فإنهم يعمدون إلى «التشويش» على إرسالها حتى لا يسمع صوت الإسلام في البلدان النائية، أو عن طريق إحتكار الخبر أو حجبه عن وكالة الأنباء الإسلامية أو الوكالات التي تتعاون معها بواسطة وكالات الأنباء الكبيرة، مثل وكالة «رويتر» أو وكالة «الآسوشيتدبرس» أو وكالة «اليونايتدبرس» أو وكالة «تاس».

أو تشويه سمعة المؤسسات الاقتصادية الإسلامية، من بنوك وشركات، والتي تموّل الدعوة وتشد من أزرها مادياً، مثل ما فعلوا مع بنك فيصل الإسلامي بالسودان واتهموه بأنه يحتكر الذرة والقمح ويخزّنها ليبيعها للناس بأسعار مرتفعة، حتى اضطر البنك لمقاضاتهم، مما حدا بهم إلى أن يعتذروا له عن تلك التهمة بعد أن حكم القضاء لصالحه.

وكذلك محاربتهم للمنظمات الإسلامية التي تنشر الإسلام بالعمل والكلمة الطيّبة وأعمال البر والإحسان كإنشاء المستشفيات والمعاهد والمدارس وبناء دور العجزة والأيتام وكفالتهم وإيوائهم وملاحقة العمل الكنسي التنصيري ولا سيّما في أفريقيا، التي وجّه أعداء الإسلام كل جهدهم صوبها ليجعلوها نصرانية خالصة، كما زعموا، تلاحق هذه المنظمات الإسلامية المبشرين النصارى ببناء المساجد جوار الكنائس وإلحاق تلك بها لحماية أبناء المسلمين من جرف الكنيسة لهم ولجذب النصارى والوثنيين للدخول في الإسلام، وغير ذلك كثير من الأعمال الخيرية الدعوية تقوم بها المنظمة الإسلامية ولا سيّما منظمة الدعوة الإسلامية في إفريقيا التي مقرّها الرئيسي في الخرطوم. ولكنها قد لقيت عنتاً ومشقةً شديدة من شقّ

طريقها للدعوة من قِبَلِ العلمانيين من المسلمين ومن قبل مجلس الكنائس العالمي .

ذلك سرد ملخّص للصحافة العلمانية وتأثيرها في المجتمع المسلم .

أما الكتاب المسلمون الذين يدافعون عن الإسلام ويبرزون محاسنه وصلاحيته لكافة البشر، فإن مآلهم، إما إلى السجون، وإما إلى الموت .

وبهذه الطرق تخلو الساحة للذين تربّوا على أيديهم وترسّموا خطاهم من العلمانيين والشيوعيين، ومن ثم يطلقون عليهم ألقاب الوطنيين والشرفاء والأحرار. . . وما إلى ذلك من الألقاب ذات البريق الناري الذي يريدون أن يحرق شرره المسلمين.

وهناك في الطرف الآخر، ظهر كتَّاب يكتبون كتباً كانت هي الأخرى سبباً في رواج المذاهب والفلسفات الإلحادية واللادينية عامة في العالم الإسلامي، نذكر منها في المقام الأول كتب رافع بك رفاعة الطهطاوي، وإن كان الأثر في كتبه للدعوة لتلك المذاهب لا يُرى فيها واضحاً جلياً، ذلك لأن رفاعة الطهطاوي كان يُغلف دعوته بغلاف سميك حتى لا ينفر منه المجتمع المسلم في ذلك الوقت الذي لم يعرف شيئاً ذا بال عن هذه المذاهب والفلسفات الهدامة، ولو أنه أعلن ذلك صراحة في ثوبه المخالف للإسلام، لَمَا تُرِك له كتاب يروج ولا بحر يموج ولا صوت يرتفع .

ولكن الناس كانوا يظنون أن ذلك يقوله ويكتبه عن حسن نية وطيب قصد وسلامة طوية فسايروه فيه .

وحتى لو افترضنا أن إعجابه بأوربا ودعوته الناس للأخذ بحضارتها واتباع خط سيرها السياسي وارتسام رسمها الاقتصادي وانتحاء نحوها الثقافي. . . لو كان كل ذلك عن حسن نية منه، فإنه كان الشرارة الأولى، لأن هذه الدعوة قد عملت عملها فيما بعد وهيأت الجو للأجيال التالية .

وكانت كتب رفاعة الطهطاوي متنوعة بحيث شملت كل النواحي

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وشؤون المرأة والتربية والتعليم والقوانين[1] ومن هنا كان مكمن الخطر.

ومن كتبه التي كانت شاملة لنواحٍ عديدة، كتابه:
مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية.

وكتابه: تخليص الإبريز في تلخيص باريز. الذي تعرض فيه للقوانين الفرنسية العلمانية وقارنها بالشريعة الإسلامية ووصف تلك القوانين بالعدل والإنصاف!!

ومن كتبه: المرشد المعين للبنات والبنين. الذي تكلّم فيه عن التعليم عامة، وتعليم البنات خاصة وحثّ فيه على خروج المرأة للعمل ووجوب مشاركتها للرجل في كل شيء دون قيد ولا شرط في كل نواحي الحياة ومناشطها، حتى الأعمال اليدوية الثقيلة الشاقة...

وهناك كتب طَه حسين الأدبية والفكرية، ونذكر منها على سبيل المثال، كتابه: في الشعر الجاهلي. الذي طعن فيه الإسلام ونبيه، ﷺ.

وكذلك كتابه: مستقبل الثقافة في مصر. الذي تعرّض فيه للتعليم عامة والتعليم الإسلامي، مما فصّلناه من قبل هذا الكتاب.

ومن الكتب التي دعت لعلمنة المجتمع الإسلامي علمنة كاملة مركّزة على القوانين التي هي العصب الحي بالنسبة للمجتمع حيث أنها تمس كل جوانب الحياة وتُحكم بها كلَّ تحركاتِ الناسِ في سير معاملاتهم، من هذا النوع من الكتب كتاب: الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبدالرزاق، الذي ركّز فيه على عزل السياسة عن الإسلام وإبعاده عن أية فكرة تدعو لإدارة الإسلام للدولة، فزعم أن الدولة يجب أن تكون علمانية، لأن

---

(١) انظر كتابنا: منهاج الحياة.

الرسول، ﷺ، لم يدع ولم يعمل على تكوين دولة، على حد تعبيره، وإنما كان يدعو لإقامة شعائر الدين المتمثّلة في العبادات وتزكية النفس وكلمة التوحيد، لا إله إلّا الله!!، وقد فاته أن، لا إله إلّا الله، تعني تفويض الأمر كله لله وعدم إشراك أي بشر غيره معه، وعلى رأس ذلك أن تكون الحاكمية لله وحده، لا ينازعه فيها منازع، وتكون بشرعه المنزّل على عبده ورسوله محمد، ﷺ، وأن التحاكم إلى غير شريعته، من القوانين الوضعية، هو تحاكم إلى الطاغوت، فمن دعا إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله من شرائع وأحكام، فقد أشرك مع الله طاغوتاً آخر، لأن الحكم لله وحده: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾[1].

وآخر نموذج أعرضه للإعلام المقروء هو كتاب: اليوم والغد، لسلامة موسى، ولقد طبع الكتاب عام ١٩٢٧ م».

فقد دعا سلامة موسى في هذا الكتاب إلى جعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً غربياً صرفاً في كل شيء بلا استثناء، كما دعا إلى الأخذ بالقوانين الغربية الأوربية ونبذ التحاكم إلى الشريعة الإسلامية فهو يريد من الحكومة أن تكون «ديمقراطية» برلمانية كما هي في أوربا وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون «أوتقراطية» دينية... وأن يعاقب بالسجن كل من يتزوّج أكثر من امرأة ويمنع الطلاق بحكم المحكمة... وأن يقتلع من أدبنا كل آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهية...!![2].

كما دعا إلى الخروج من آسيا نهائياً والإلتحاق بأوربا في كل أوجه النشاط البشري... وبهذا يكون قد دعا إلى العلمانية في قمتها، دعا لها

---

(١) سورة يوسف: آية ٤٠٧.

(٢) اليوم والغد، ٢٢ فما بعدها.

حتى جغرافياً وليس فكرياً فحسب، والقصد بالخروج من آسيا حيث منشأ الإسلام ومنبعه الذي منه فاض على العالم.

والخلاصة، أن الإعلام المقروء كان له الأثر البالغ في حياة المجتمعات الإسلامية وهو قادر على توجيهها نحو الوجهة التي يريدها، إن خيراً وإن شراً، وهو ما يستوجب العناية به وتوجيهه الوجهة الصحيحة السليمة.

وعلى الدعاة أن يجندوا أقلامهم لمحاربة الأفكار الوافدة على المجتمع الإسلامي حيث إن الإعلام الحديث اليوم يحارب الدعوة في كل مكان.

لمحة موجزة عن بقية أجهزة الإعلام وأثرها في المجتمع

ليس القصد هنا أن أبحث في وسائل الإعـلام كلها وسيلة وسيلة وأعدد سلبياتها وإيجابياتها، فإن هذا لا يقدر عليه إلّا من أفرد له بحثاً خاصاً به، بل وتصلُح كل وسيلة من وسائل الإعلام أو جزئية من جزئياتها أن تسع عدداً وأسفاراً ضخاماً من المجلدات.

أما الغرض هنا إنما هو العرض المجمل لبعض هذه الوسائل وكيف أنها كانت ذات أثر في دحرجة المجتمع الإسلامي والاتجاه به صوب الفكر الغربي المادي النابذ للدين.

فمثـلاً، النـاظـر في الإذاعـة يجـد أنها ذات أثـر كبـير في نفـوس المستمعين، حيث إنك اليوم لا تكاد تجد بيتاً يخلو من المذياع.

وخطورة الإذاعة أنها تخاطب كل طبقات المجتمع، ابتداء من العامي إلى قمة المتعلّم، كما لها أثر بـالغ في القـدرة على جـذب جمهور النسـاء والأطفال، ولذلك نجد أن أعـداء الإسلام ومنـافقيهم من السياسيـين، يـركّزون في دعـايتهم الإعـلاميـة ونشر ضـلالاتهم عـلى جهـاز المـذيـاع الإعلامي، فيوجهون البرامج بحسب ما يـروق لهم من ترويـج الأفكار والمذاهب الهدّامة.

ونجـد أن أكثر الـذين يقع عليهـم التـأثير ويتقبّلون هـذه الأفكار ويتفاعلون معها بسرعة هائلة وحساسية مفرطة وبروية قليلة، هم جمهـور النساء والأطفال والمراهقين.

والسبب في ذلك، عموماً، هو شدة التصاقهم وقربهم من هذا الجهاز وشغفهم الواله به، ولا سيّما النساء، وكذلك يعود السبب لقلة تعمّقهم وتمحيصهم وأخذ الأشياء بعفوية، ولما لديهم من عاطفة جيّاشة تندفع بأقل مثير.

ومن هنا كان خطر هذا الجهاز إذا لم يوجه التوجيه السليم.

والجمهور حيال هذا الجهاز ينقسم إلى ثلاثة أقسام، تقريباً. لكل منهم رغباته الخاصة ومزاجه المباين للآخر، ولكل فئة من هذه الفئات توجه برامج خاصة له تغطّى حاجاته وتشبع تطلعاته، هذا في الأغلب والأعمّ.

فإن الرجال العقلاء من بعد سن الشباب المبكر إلى الشيخوخة، هؤلاء لهم قِسم خاص بهم ولهم هواياتهم الخاصة بهم، حيث نجدهم، في الغالب، يميلون إلى الهدوء والثبات والنَّفَس الطويل في الحجة والأقناع، ولا يكون التأثير عليهم سريعاً، ولا ينجذبون إلى المثيرات بسرعة، بل تدخل الفكرة إليهم ببطء وروية وبعدِ طول مدة من إقامة حجة وربما بعد أُلفة طويلة ومداراة حكيمة . . .

والمراهقون والشباب نجدهم متحفزين وثَّابين ميَّالين إلى الآراء المتطرفة الجديدة، تثيرهم الصور البرَّاقة وتجذبهم الألوان الزاهية والبرامج ذات البطولات النادرة والمغامرات الثائرة والقصص الغرامية.

وبهذا النوع ولمثله كانت توجه ضربات أعداء الإسلام في إفساد أخلاق المراهقين والشباب.

ويشابههم في ذلك النساء والأطفال إلى حد ما، وإن كان التأثير العاطفي عند هؤلاء الأخيرين هو المسيطر والغالب على أمزجتهم ـ كما ذكرت ـ وعلى وجه الخصوص الأطفال.

فإذا لم يوجه هذا الجهاز الحساس الوجهة الإسلامية النزيهة فإن أثره المفسد سيكون جِدّ خطير.

ومن الأجهزة المسموعة، الأشرطة المسجلّة «الكاسيت» التي تمتاز بحفظها للكلام زمناً طويلاً حيث يكون مفعوله متكرراً إقناعياً، ولو عن طريق الأُلفة بتكرار سماع الشيء المسجّل حتى تعتاده الأُذن ويركن إليه القلب ويستسيغه العقل، لأن الإنسان يألف الشيء إذا تكرر عليه مرات حتى لا يكاد ينكره.

ولذلك نجد أعداء الإسلام يعتمدون على هذه الأشرطة لخطبائهم ولمقالاتهم التي تُذاع في المناسبات ويعيدون نشرها الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَة لتطرق آذان المستمع حتى يعتادها، فهم إذا رأوا إثارة من قِبَل الجماهير للمرة الأولى تركوها أمداً من الزمن حتى تهدأ ثائرة الناس ثم يعيدونها لهم فجأة، وهكذا تتكرر المنكرات حتى تصير عادات...

أما أجهزة الإعلام البصرية السمعية فنجد منها: التلفزيون والسينما والمسرح والفيديو:

وتتميّز هذه الأجهزة أنها تعمل فيها كل الحواس، سمعية وبصرية، ويتركّز على عرضها كل الجهاز العصبي في المشاهد، مما يشدّ انتباهه ويملك عليه حواسّه وإحساسه، ومن ثَمَّ يكون التأثير قوياً بحيث لا يملك المشاهد معه تفكيره ولا قوة تركيزه في تلك اللحظات، ولا تعطيه مجالاً واسعاً للتأمّل وإمعان النظر وإعمال الفكر، بل تخطف ذهنه خطفاً وتقفز به هنا وهناك بمختلف وسائل الإغراء والجذب التي أجادها وتفنن فيها أرباب المهنة ودهاقنة المنكر في هذا الجهاز مما يجعل المشاهد له يستسلم لما يرى ويشاهد، ومن ثم يدخل في بؤرة لاشعوره فيرقد في الحاسة الكامنة لا يتحرّك إلّا عند مثير آخر مشابه ومماثل ينبهه لذلك ويهمس في حاسة التذكار بأن أعيدي ذكرى الماضي وحرّكي تسجيله وأعيدي تشغيله...

وهذه الأجهزة بما يعرض فيها من أفلام خبيثة خليعة ماجنة وقصص

غرامية مثيرة ذات أثر مفسد، فإنها بهذه الطرق تؤدي إلى انحلال الأخلاق وهدم الفضيلة وشيوع الرذيلة في أوساط المجتمعات الإسلامية.

وإذا فسدت أخلاق المجتمع تحلّل من دينه وصار لا يأبه له ولا يثيره انتهاكه؛ لأن الدين يقوم بربط النفس الإنسانية على كل فضيلة وخير، فإذا دخلت هذه العوامل المفسدة سهل على أعداء الإسلام العمل في وسط هذا المجتمع بعد أن بَعُدَ عن تعاليم دينه تحت وطأة تأثير هذه المذاهب والفلسفات الوافدة.

وجهاز التلفزيون والسينما، لهما أثر كبير في النفوس وخاصة الأطفال والنساء، حيث لا يقوون على مفارقته والابتعاد عنه، وخاصة التلفزيون، مما يجعلهم يتقبّلون كل ما يعرض عليهم، وأقرب دليل على ذلك ما جاء في إحدى الصحف حول تأثير التلفزيون تحت عنوان:

لماذا يضعف التلميذ الأمريكي أمام شاشتي التلفزيون والسينما؟

قال تقرير رسمي نشر في لوس أنجلس، يوم أمس أن الأولاد في الثانية عشرة من أعمارهم يملكون ضعفاً خاصاً تجاه التلفزيون وأن معظمهم غير قادرين على التخلّي عنه ولو ليوم واحد.

وكانت مجموعة من التلاميذ قد خضعت في الأسبوع الماضي إلى امتحان عنوانه: توقف عن مشاهدة التلفزيون لمدة شهر.

فجاءت النتائج مخيّبة للآمال.

وجاء في الإحصاء أن (٨٥) بالمائة من التلاميذ فشلوا في مقاومة إغراء التلفزيون، وأن عدداً كبيراً منهم غشّوا أنفسهم في الامتحان واعترفوا بمشاهدة بعض البرامج بصورة سرية. وأن الباقي ردّوا على أسئلة الامتحان بالقول:

عفواً، ولكننا لا نستطيع على هذا!!

وقال أحد التلامذة، أيضاً: لقد حاولت كثيراً ودرت في غرف المنزل أبحث عن شيء لأفعله، ولكنني لم أجد شيئاً فجلست بالرغم عني قرب الشاشة.

وكانت بعض التقارير الأخرى قد أشارت إلى ضعف الأولاد أيضاً أمام السينما، لكن يبقى التلفزيون أكثر الأشياء المحبّبة إلى قلوب الصغار والمراهقين...

وتستطرد الصحيفة قائلة عن السينما ومدى جذبها للأطفال:

وفي دراسة بهذا المعنى نشرت في الأسبوع الماضي تبين أن (٢٥) بالمائة من التلامذة الذين يتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة، صرحوا بأنهم يهربون مرة واحدة في الأسبوع، على الأقل، من المدرسة إلى قرب صالة السينما، وأن (١٥) بالمائة يهربون أكثر من (٣) مرات في الأسبوع، وأن أكثر من (٣) بالمائة أكّدوا بأنهم يحضرون أكثر من خمسة أفلام في الأسبوع الواحد. أما الباقي فأوضاعهم مرهونة بأجواء المدرسة والجو العائلي[1].

حرصت على نقل هذا التقرير بكامله كي أبينِّ أن هذه الأجهزة الإعلامية لها الدور الفعّال والأثر البالغ والمفعول الأكيد في جذب الجمهور إليها ولا سيّما الصغار ومن يلونهم مباشرة في السن. فهؤلاء إذا لم تعد لهم البرامج الصالحة وتعرض لهم المسرحيات الهادفة التي تهذّب الأخلاق وتنظّم السلوك وتحكي لهم سيرة السلف الصالح وجهاده في سبيل إعلاء كلمة الحق، وتريهم بطولاتهم الإسلامية النادرة، وتبرز لهم صفحات تاريخهم المشرق في عصوره المضيئة، حتى يكون النشء عارفاً بسيرة سلفه وفنائهم في سبيل نشر الإسلام.

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد ٢٢٦ الخميس أول جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ.

وتعرض لهم العلوم البحتة وما وصت إليه «التقنية» الحديثة حتى يفيدوا منها في الناحية العلمية، على أن تكون هذه العروض مقرونة بمكتشفات العلماء المسلمين وكيف أنهم كانوا هم الروّاد الأوائل الذين حازوا قصب السبق إلى هذا الميدان العلمي التطبيقي وأن الغرب قد أخذ هذا العلم عنهم وعن كتبهم[1].

ولن يصلح أمر هذه الأجهزة إلّا إذا كانت تحت ظل دولة إسلامية تنفِّذ أحكام الشرع كاملة غير منقوص منها في كل شؤون الحياة وألوان النشاط البشري. فالبيت لا يبنى إلّا له عمد، ولا عماد إذا لم ترس أوتاد. ومع ذلك تحرص على وضع الرجل المسلم في جهاز المراقبة في استيراد الأفلام والبرامج المختلفة، ووضع المخرج المسلم عند «الشاشة» وعند المسرح، والمؤلف المسلم عند كتابة الرواية التي تُمّثل حتى تؤدي هذه الأجهزة دورها الإسلامي ويكون هناك جهاز إعلامي إسلامي على الوجه السليم.

وما قيل فيما سبق من أجهزة الإعلام، يقال فيما سواها، مثل وكالات الأنباء التي تستقصي الأخبار وتحرّرها وتنقل عنها بقية الأجهزة.

النحت والرسم:

وكذلك وسائل النحت والرسم التي تحكي البطولات والأمجاد السابقة للإسلام في العصور الجاهلية والفرعونية والفينقية، وغيرها مما يجد تلك الوثنيات ويذكِّر المسلم بأن له مجداً سابقاً على الإسلام يجب أن يلتفت إليه، فتدخل فيه من غير شعور، نخوة الجاهلية التي أبطلها الإسلام وجعلها جيفة منتنة تستكره وتستقذر، وهو ما نهى عنه الأنصاري

(١) للتوسع في ذلك انظر كتابنا: منهاج الحياة.

والمهاجري عندما تنادياً بهذه الجاهليات في إحدى الغزوات، فبادر الرسول، ﷺ بنهيهما.

وهذا ما حكاه جابر بن عبدالله، رضي الله عنه، بقوله:

كنا في غزاة ـ قال سفيان مرة في جيش ـ فكسع رجل من المهاجرين رجالاً من الأنصار، فقال الأنصاري:

يا للأنصار!! وقال المهاجري:

يا للمهاجرين!! فسمع ذاك رسول الله، ﷺ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟!. قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال:

دعوها، فإنها منتنة، فسمع بذلك عبدالله بن أُبي فقال: فعلوها؟! أَمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي، ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال النبي، ﷺ، دعه، لا يتحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد، قال سفيان: فحفظته من عمرو، قال عمرو، سمعت جابراً، كنا مع النبي، ﷺ[1].

وما قبحه الإسلام يجب على المسلم تقبيحه، ناهيك عن مدحه ونحت التماثيل له ورسم اللوحات تخليداً لذكراه، كما حصل بالنسبة لتخليد ذكرى الفراعنة وما يزعمون أنهم عظماء مما نراه منتشراً في كثير من البلاد الإسلامية اليوم.

---

(١) متفق عليه، البخاري كتاب التفسير، سورة ٦٣. باب ٥ حديث ٤٩٠٥ ومسلم كتاب البر سورة رقم ٦٣.

هذا إلى جانب تحريم الشريعة الإسلامية للتماثيل إذا كان المصوَّر آدمياً أو حيواناً له روح.

أما إذا كان النحت والرسم يبرز جوانب فنون الحضارة الإسلامية في المعمار والهندسة وفنون الخط العربي والزخرفة وغيرها من ضروب الفن الذي يعود بالمسلم إلى مجده الإسلامي، فمثل هذا يعتبر وسيلة إعلامية ناجحة بخلاف ذلك الذي يحاول هدم الإسلام وتناسيه.

والخلاصة، أن أجهزة الإعلام كلها، ما ذكرت منها وما لم أذكر، كانت، وما زالت، لها القدح المعلَّى في خدمة المستعمر وأعداء الإسلام وترويج المذاهب الهدامة وتركيزها في أذهان كثير من المسلمين وبثها في أنحاء البلاد الإسلامية، مما نتج عنه إبعاد الإسلام بكل نظمه عن الساحة الإسلامية حتى كاد أن يصل طور الغربة بين المسلمين، وإن كان قد وصل إليها بالفعل في بعض الجوانب كالقوانين وشؤون الحكم والسياسة والمعاملات الاقتصادية وغيرها من أوجه الحياة التي تدار على غير هدي الإسلام.

ولن يعود هذا الوجه الإسلامي المفقود إلّا بإصلاح عام شامل لكل هذه الأجهزة، وما أحسب أن هذا الإصلاح الشامل يكون إلّا تحت راية الحكومة الإسلامية التي تطبّق شرع الله بكامله وتوحد المسلمين تحت لوائها أمة واحدة تعبد رباً واحداً وتدين بشريعة واحدة. . . وليس ذلك على الله بعزيز.

الفصـل الثالـث

أثر العلمانية في القوانين

هذا الفصل يحتوي على النقاط التالية بغير التزام ترتيب تسلسلي:

١ ـ كانت علمنة التعليم والإعلام تثبيتاً لعلمنة القوانين حيث تخرج جيل رعى هذه القوانين وطبقها.

٢ ـ الاستعمار هو صاحب الدور الأساسي في تغيير التشريع الإسلامي.

٣ ـ لجنة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية قامت بصياغة القوانين العلمانية وتحريرها.

٤ ـ كان للكتاب العلمانيين الأثر الكبير في إلغاء المحاكم الشرعية.

٥ ـ نتج عن علمنة القوانين جهل المسلمين بأحكام الشريعة في كل النواحي.

علمنة التعليم والإعلام أساس لعلمنة القوانين

كان العمل على علمنة التعليم والإعلام ذا أثر في القوانين، حيث خرَّجت المدارس العلمانية جيلاً درس هذه القوانين الوضعية الغربية وآمن بها بعد أن خلا ذهنه من معرفة التشريع الإسلامي وتنظيمه لشؤون الحياة.

ولهذا فقد عمل هذا الجيل على تثبيت القوانين الوضعية التي استبدل بها المستعمر التشريع الإسلامي الذي عاش المسلمون تحت ظله وقتاً طويلاً امتدّ حوالي نيِّف وثلاثة عشر قرناً من الزمان لم يعرف فيها المسلمون القوانين الوضعية، التي طرحت التشريع الإسلامي جانباً، وإن بدأ الاقتباس في أواخر العقد الوسيط من الخلافة التركية، ولكنه كان مع ذلك كله شيئاً ضئيلاً لم تغب فيه الشريعة الإسلامية عن تنظيم حياة المجتمع.

وكان الاستعمار قد لعب الدور الأساس في تغيير وجه التشريع الإسلامي المشرق، غَيَّرَ وجه التشريع بإدخال قوانينه الوضعية التي كانت تحكم بها بلدانهم بعد اطراح الدين جانباً على عهد الثورة الفرنسية، رائدة العلمانية في الغرب، ولهذا أرادوا أن ينشروا هذا الداء العضال في المجتمع الإسلامي حتى تفسد أخلاقه بفساد القوانين التي تدير شؤون الحياة وتنظمها، فيباح كل ما حظرته الشريعة الإسلامية، من منكرات لصيانة الإنسان وحفظ كرامته، فتنتهك كل حرمة له، حتى يغدو المسلم لا يعرف شيئاً عن دينه وعن حكم الشريعة، بل وينكر ذلك بطول الأمد، وهو ما حصل بالفعل مما نراه اليوم من ابتعاد القوانين التي يحكم بها العالم

الإسلامي عن روح الشريعة إلّا ما قـل وندر من ذلـك من الدول التي تتمسك بالبعض.

والنـاظر الآن إلى العـالم الإسـلامي لا يجـد دولـة تتحـاكم إلى شرع الله فيما يعرض لها من مشاكل في جوانب الحياة، سواء كان ذلك في المعاملات المالية أو الإدارية أو في الشؤون الاجتماعية الأخرى كـالحدود وغيرها، ولا يكاد المرء يستثني دولة من ذلك، اللهم إلّا المملكة العربية السعودية، أو أخيراً ما كان من شأن باكستان التي بدأت بتطبيق جزئي، وإن كانت المعالم الرئيسية لباكستان لم تتضح بعد في الوقت الحاضر.

الاستعمار يعمل على محو التشريع الإسلامي

وكان الاستعمار الذي اقتسم الدول الإسلامية من الهند إلى المغرب وبقية العالم الإسلامي، عمل في كل هذه البلاد على محو التشريع الإسلامي وسن قوانين بديلة عنه وفرضها على المجتمع الإسلامي، وعلى سبيل المثال: ما حصل بالنسبة لمصر، فقد جاء إلى هذا الميدان «نوبارباشا» وهو رجل أرمني الأصل نصراني الدين، كانت عواطفه وميوله إلى جانب بريطانيا، وهو أول رئيس للنظارة بمصر، فرضته القوى الأجنبية على إسماعيل باشا، على أن أكبر ما قدمه نوبار لأعداء الإسلام هو تصرفه فيما يتعلق بالقضاء، فقد أنشأ لجنة لوضع القوانين غير الإسلامية تستمد من القوانين الأجنبية، منها قانون للأحوال المدنية، وقانون للأحوال الجنائية، وآخر للإجراءات وقانون للمرافعات المدنية والتجارية، وقانون تجاري بري وبحري.

وكان القانون المدني أهم هذه القوانين لأنه أصل لباقي القوانين بحيث تطبق نصوصه إذا لم يوجد نص في القوانين الأخرى.

وقد قام بوضع هذا القانون المدني «العلماني» مسيو «مانوري» الذي جعله «نوبار» سكرتيراً خاصاً له وأميناً عاماً للجنة القوانين والتي صدرت سنة (١٨٧٥ م)[١].

وقد كانت الحملات الإعلامية آنذاك قوية وشرسة على الأحكام

---

(١) انظر موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي: ٣١١/٧.

الشرعية، حيث كانت تُنعت بالتخلف وعدم مسايرة العصر حتى وصلت الدعوة في النهاية إلى القول بوجوب إلغاء المحاكم الشرعية نهائياً وإحلال محلها محاكم علمانية.

ويبرز هذا الاتجاه في لجنة الإدارة الثقافية بجامعة الدولة العربية التي كان يشرف عليها، أولاً، أحمد أمين ثم بعده طّه حسين.

فقد طفقت هذه اللجنة تكتب المقالات وتحرر النشرات للدعوة إلى الآخـذ بالقوانين غير الإسلامية ووجوب تعديل التشريع الإسلامي حتى يتلاءم مع القوانين الغربية العلمانية.

ومن ذلك المقال الذي كتبه أحد دعاة علمنة القوانين[1]، فقد دعا في مقاله هذا إلى توحيد القانون المدني في سائر البلاد العربية باستثناء الحجاز واليمن لأنهما تلتزمان الشريعة الإسلامية، إلى أن يحين الوقت الذي تتمكن فيه من المشاركة في حركة التقنين المدني العربي. . . ويقول بعد ذلك:

إن التقنين العربي يتنازعه تياران، أحدهما ممثل في القانون المصري، وهو تيّار عربي خالص أو يكاد، والآخر يمثّله العراق الحديث، وهو يمزج بين الشريعة الإسلامية والقوانين الغربية. . .

ويُدخِل في القسم الأول الذي يصفه بأنه:

ينتمي إلى الثقافة المدنية الغربية، يدخل فيه مصر وسوريـا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش، بينما يدخـل في القسم الثاني العـراق والأردن وفلسطين.

وما ذكره كاتب المقال من التباين بين القانون العـراقي والمصري، والقول بأن الأول له حظ من الشريعة الإسلامية، هذا كان فيما مضى، أما

---

(١) هو الدكتور عبدالرزاق السنهوري وقد نشر المقال في مجلة الأزهر تحت عنوان: القانون المدني الغربي ١٩٥٧ م في عددي شعبان ورمضان.

الآن فالكل في الهواء سواء، حيث لم يعد للتشريع الإسلامي من نصيب في حياة المجتمع التشريعية، ولم تعد الحاكمية ترجع فيما شجر بين المسلمين إلى الله، بل إلى القوانين الوضعية العلمانية.

وصاحب المقال يدعو في بادىء الأمر إلى المزج بين القانون الغربي العلماني، وبين الشريعة الإسلامية وذلك في وجهة نظره، بعد أن أصبح الفقه الإسلامي والقانون المدني الغربي جنباً إلى جنب في صعيد واحد، أن يتكامل القانونان وأن يتفاعلا!! هذا يؤثر ذاك، وقد يتأثر به، ومن ثَمَّ تقوم نهضة حقة لدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي...

ومن هنا يخلص الكاتب إلى هدفه المنشود الذي يرغب فيه الاستعمار، وهو دمج التشريع الإسلامي في القوانين العلمانية، تمهيداً لزحزحتها رويداً رويداً عن الحكم، حتى حلّت محلها اليوم هذه القوانين.

وبذلك تمت علمنة القوانين في البلاد الإسلامية إلى يومنا هذا.

ولذا، فإن النتيجة الحتمية، إذاً، لوضع القانون المدني المصري ولوضع القانون المدني العراقي، مشتقاً منه ومن الفقه الإسلامي على السواء، هي النهوض بدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني...[1].

وهكذا يزعم لنا أتباع المذاهب الغربية الهدامة يزعمون أن ترقيع وتلفيق الفقه الإسلامي من القانون الوضعي يدعمه ويصلح من شأنه ويجعله مرناً وملائماً لتحديات العصر!!.

وقد غاب على الكاتب وأمثاله، أن شريعة الله واحدة لا تقبل التجزئة، كما أن دين الله كامل لا يحتاج إلى ترقيع من النظم البشرية القاصرة.

---

(١) انظر المرجع السابق.

فإن أي جسم غريب يدخل هذا الدين لا يصلح له ولا يتوائم معه.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة آيات ٤٨ ـ ٤٩.

إلغاء المحاكم الشرعية

وتستمر الحملة المحمومة لعلمنة القانون، وتنحدر الدعوة إلى الدرك الأسفل عندما تبدأ المطالبة بإلغاء المحاكم الشرعية نهائياً ودمجها في القضاء السائر على القانون العلماني، والغريب في الأمر أن أكثرية المسلمين صامتون أمام هذا الزحف نحو علمنة القوانين بينما نجدهم يثورون، أحياناً، في وجه الاستعمار الذي يحتلّ البلاد ويطالبون بخروجه منها، في حين أنه قَلَّ من تجدهم يطالبون بتحكيم الشرع ويثأروا لذلك، اللهم إلّا الأقلية من المثقفين ثقافة إسلامية، حيث لم ينقطع صوتهم من المناداة بالرجوع إلى حكم الله.

ولكن يتساءل المرء، لماذا سكت المسلمون إزاء هذا؟ ولا أجد إجابة أقرب إلى الصواب من القول بأن هذا الجيل من المسلمين قد تربّوا تحت أحضان الاستعمار الغربي العلماني وتشرّبوا ثقافته القائمة على عزل الدين عن الحياة، وتلقّوا ذلك في مناهج التعليم العلماني، وعمقته في نفوسهم وسائل الإعلام العلمانية، أضف إلى ذلك أفواج المبتعثين إلى أوربا الذين رجعوا وهم قد شغفهم بهرج أوربا الزائف وأخذ بلبابهم زخرفها الفتان، فطفقوا ينوِّهون بذلك ويشيدون به في إعجاب شديد، كما عملوا على تطبيقه عندما تولّوا مقاليد الأمور في بلدانهم الإسلامية.

وفي وسط هذه المعمعة وفي مائها العكر يصطاد الخبثاء، حتى نجد أن الجرأة تصل بغير المسلمين بأن ينادي بإلغاء التشريع الإسلامي ويسميه

جسماً غريباً، ويسخر من وزارة الأوقاف ومن المحاكم الشرعية ومن الأزهر، بل ومن الإسلام نفسه، حين يقول:

وها نحن أولاء نجد أنفسنا مترددين بين الشرق والغرب، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوربية، ولكن نجد وسط الحكومة أجساماً شرقية[1] مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد، ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدّن، ولكن كلية جامعة الأزهر تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة، ولنا «أفندية» قد تفرنجوا، لهم بيوت نظيفة ويقرأون كتباً سليمة ولكن إلى جانبهم شيوخاً لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطريق في الأرياف، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود كفاراً، كما يسميهم عمر بن الخطاب قبل (١٣٠٠ سنة)!!.

هذه الدعوة الصريحة لإلغاء شرع الله وتسميته بالجسد الغريب الأجنبي في بلاد المسلمين، وهذا الطعن في الإسلام على مرأى ومسمع من أهله ورمي ثقافته بثقافة القرون الوسطى المظلمة عندهم، كما درج على تسميتها المستشرقون... كل هذا يحدث في بلاد الإسلام، والمسلمون لا يحركون ساكناً تجاه ذلك، كل ذلك يدل دلالة لا يدانيها شك ولا يخالجها ريب، أن الحملات الإعلامية والمناهج التعليمية، قد فعلت فعلها في توهين نفوس المسلمين حيال هذا الدين والذب عن حياضه، إلّا ما ذكرت من الطائفة المنصورة التي ما برحت تذود عن هذا الدين وتنفي عنه غبش التيارات الضالة، كما ينفي الكير خبث الحديد... وهي لا تزال قائمة - بحمد الله - متمثلة في الحركات الإسلامية المنبثة في أرجاء العالم وفي

---

(١) صاحب المقال هو النصراني سلامة موسى، ويقصد بالأجسام الشرقية كل ما له صلة بالدين الإسلامي، وهو تعبير غربي خبيث أطلقه المستشرقون على المنطقة الإسلامية.

الجامعات والمعاهد في البلاد الإسلامية بالرغم من كثافة المناهج التعليمية العلمانية التي تصب عليها.

وهذا الذي ينادي به أعداء الإسلام من النصارى عباد الصليب أمثال سلامة موسى من محو الإسلام وإزالة كل آثاره، هو ما يفعله رصفاؤهم اليوم في بعض البلاد الإسلامية حيث طفق هؤلاء النصارى في بلد مُسْلِم مثل السودان، أخذوا يرفعون أصواتهم جهاراً بالمناداة بإلغاء الأحكام الشرعية وعدم تطبيقها حتى على المسلمين وسن بديل لها من القوانين العلمانية، بل وارتفعت الدعوة إلى أكثر من ذلك وتطرفت لتصل بالقول بطمس الهوية الإسلامية العربية للسودان الذي يصل تعداد المسلمين فيه إلى تسعين بالمائة، وعدد النصارى أقل من سبعة بالمائة في الحقيقة التي لا مناص عنها، والباقي من الوثنيين الذين لا يدينون بدين البتة.

ولكن هؤلاء النصارى تساندهم كل قوى الشر المعادية للإسلام اليوم بدون استثناء، فهم يجدون كل عون ودعم وتشجيع لا حدود له من مجلس الكنائس العالمي، ومن منظمات الإغاثة المزعومة التي تعمل في السودان من أجل التنصير ومحو الإسلام واللغة العربية وهي اللغة الأصلية للمسلمين ولغة الدولة الرسمية ولغة العمل والدراسة والتخاطب، ويساعدهم ويشد من أزرهم الشيوعيون والقوميون أصحاب مشيل عفلق، وكل موتور ومبتور، وهم في حملتهم هذه ضد الإسلام والعروبة في السودان يعرفون أن السودان جسر وامتداد طبيعي للإسلام واللغة العربية ورافد ثر لمنبع الإسلام من الجهة الغربية وهو بالتالي معبّر رئيسي لإفريقيا، فإذا استطاعوا أن يزحزحوا الإسلام عنه فقد ضمنوا مأربهم من غزو إفريقيا وجعلها كلها نصرانية كما يريدون ويزعمون.

ولكن من يساعد المسلمين في السودان وهم ضعاف مادياً وعدو الإسلام النصراني يزود الخارجين في الجنوب بكل ما يلزمهم من عتاد

حربي وسلاح وعُدَدٍ ومال وطائرات وكل ما يلزم الحروب الحديثة، وهم يستشهدون بماض كان للمسلمين فيه العز والمنعة والغلبة ثم هزمهم الصليبيون، فعندهم الأندلس التي مكث الإسلام فيها حوالي ثمانية قرون وأنجبت علماء أفاضل من خيرة مَنْ أثرى المكتبة الإسلامية بمختلف أنواع المعارف وشتّى ألوان الثقافات والعلوم، ثم أصبحت كأن لم تكن تغن بالأمس، ثم يستشهدون بما هو أقرب من ذلك، بزنجبار التي كانت تعمر بالإسلام والعرب فأبيد أهلها في مذبحة لم تبق ولم تذر. .

فإلى متى يظل المسلمون لا يشعرون بأن الإسلام يتخطف من حولهم، وإخوانهم المسلمون يستسلمون ويذلون ويذوقون الويلات ويقاسون الثبور من جراء ما يصب عليهم من ضغوط مادية تساندها ضغوط معنوية من كل دول العالم الكافرة!.

إن السودان اليوم تعتبر الحرم الآمن والدرع والواقي والحزام الأمني لإفريقيا الغربية والجنوبية والشرقية، بل إن خسر السودان الإسلام ستمتد العدوى إلى إفريقيا الشمالية، وحينها يطوق الإسلام من جهاته الثلاث، هذا إذا أضفنا الجهة الشرقية التي طوقها الشيوعيون من قبل ذلك في أفغانستان.

ومن هنا أستحثُّ الدول الإسلامية وخاصة دول الخليج العربية الإسلامية ولا سيّما دولة الإسلام ومهبط الوحي ومنبع الرسالة، المملكة العربية السعودية، أن يهبوا لنجدة الإسلام من جهتهم الغربية وأن يحموا مياه البحر الأحمر من أن تكون غير إسلامية وإني لواثق من أن فيهم النجدة والنخوة الإسلامية والعروبة الأصيلة أصالة الإسلام عندما سنده أسلافهم ونهضوا به وأوصلوه إلى تلك البقاع فما بذره الأسلاف فيجب أن يرعاه الخلف حتى لا يصيبه التلف.

وكان من نتيجة تلك الحملات من أعداء الإسلام وأذنابهم، أن

ألغيت المحاكم الشرعية في بعض البلاد الإسلامية نهائياً وبقي البعض الآخر في بلدان أخرى قاصر على الأحوال الشخصية التي تتمثّل في مشاكل النساءَ مع أزواجهن، اللهم إلا بلاداً لا تعدو أن تكون واحدة كالسعودية فقط.

ونتج عن علمنة القوانين أن صار المسلم يجهل حكم الله في الشؤون المالية والتجارية والاجتماعية والجنائية، بل وكل شؤون الحكم استبعدت عن الشريعة الإسلامية، حيث أصبح المسلم ينكر عليك إن قلت له يجب أن نرجع إلى حكم الله ويستبعد ذلك كل البعد حتى غدت مظاهر حياته تبدو بعيدة عن هدي الإسلام الذي انحصر أو كاد أن ينحصر في العبادات فقط، مما يخالف قواعد الإسلام وأصوله وسننه في هذا الكون.

ولذلك نجد أن المسلمين في كثير من حروبهم مع أعدائهم لا يحالفهم النصر، لأنهم تخلوا في معظمهم عن أسباب النصر، حيث لم ينصروا الله في أنفسهم فتخلف عنهم نصر الله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[1].

فهلا عاد المسلمون إلى هذا النصر ليكونوا موضع الرأس في هذا العالم؟.

---

(١) سورة محمد آية: آية ٧.

الفِهْرِسْـــت

الموضوع	الصفحة